اللغة والقوة
والحروب اللغوية
محمد محمد داود
الأستاذ بجامعة قناة السويس

اللغة والقوة
والحروب اللغوية
محمد محمد داود
الأستاذ بجامعة قناة السويس

اللغة والقوة
والحروب اللغوية

محمد محمد داود

الأستاذ بجامعة قناة السويس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾

[الروم: ٢٢]

إهـــداء

إليك يـــا وطنى .. أنت أنـــا ..

أنت عزى وشرفى وفخرى ...

أعتذر إليك

فلم تكن أجيالنا عزًا ولا فخرًا

لك بـين الأمـــمِ ..

محمـــد داود

الفهـــرس

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمـة	١١
ما اللغـــة Language؟	١٥
اللغة والإنسان	١٨
• اللغة والدرس اللغوى الحديث	١٩
ما القوة Power؟	٢٢
• المدى الدلالى لفضاء معنى القوة	٢٦
• سرعة تغير مفهوم القوة	٢٧
• جدلية اللغة والقوة	٣١
اللغة والقوة والهوية	٣٦
• اللغة والتغريب	٣٧
• مصطلح «الجندر Gender»	٣٩
التهويد اللغوى	٤٥
• القدس.. والتهويد اللغوى	٤٥
• شواهد لغوية على التهويد	٤٦

الموضـــــــوع الصفحة

- إسرائيل ٤٦
- عــبرى ٤٧

اللغة والقوة والفكر ٥٠

اللغة والقوة والسياسة ٥٥

- السياسة وقوة الرموز اللغوية ٥٥
- الخطاب السياسى واستثارة الرموز اللغوية ٥٧
- الحرب ضد الإرهاب ٥٩
- العمليات الحربية منخفضة الشدة ٦٣
- محور الشر ٦٤
- الدفاع عن الحرية ٦٤
- رموز لغوية غامضة ٦٦
- الرموز اللغوية والرأى العام ٦٦
- داعـــــش ٦٧
- العسكـــر ٧٠
- قوة اللغة فى الخطاب السياسى ٧٣
- الإقناع وخطط المستقبل ٧٣

الموضـــــوع **الصفحة**

- التبرير وجرائم الماضى ٧٣
- التهديد وسياسة الإكراه ٧٤
- الإثـــارة ٧٥
- التلويح بالمنافع والأهداف المرتقبة لدى الآخر كورقة ضغط ٧٥
- المداهنة والمهادنة ٧٦
- تضليل الآخر ٧٦
- تزييف الحقائق ٧٨
- التحريض ٧٨
- التوظيف السياسى لمصطلح «السامية» ٧٩
- قوة اللغة والخروج من سجن الاستبداد السياسى ٨٢

(١) النُّـكتة ٨٢

(٢) القصص السياسى ٨٣

(٣) الكاريكاتير ٨٤

- قوة اللغة فى الانتخابات «الانتخابات الأمريكية نموذجًا» ٨٧
- اللغة وسلوك الناخبين ٨٩
- باللُّغَة يُعْرَف القادة ٩٦
- كلمات أَحْيَت أُمَّة ٩٩

الموضـــــــوع الصفحة

اللغة والحرب الإعلامية (حرب الكلمات) ١٠١

- لغة الحرب ولغة السلم ١٠٣
- اللغة والحرب النفسية ١٠٤
- الحرب النفسية واستثارة الرموز اللغوية ١٠٧
- اللغة والحرب الإلكترونية والفاعلون الجدد ١٠٨

لغة ثورة ٢٥ يناير نموذجًا ١١٠

- الثورة تكسر حاجز الصمت ١١٠
- المنحنى اللغوى للثورة ١١١
- لغة أبواق النظام ١١٨
- لغة النصر ١٢٠
- تعبيرات أشاعتها الثورة ١٢١
- التنبؤ اللغوى لنجاح الثورة ١٢٢

اللغة والقوة الناعمة (الدراما) ١٢٤

- الأدب القصصى تشكيلٌ جماليٌّ باللغة ١٢٤
- السَّرْد ديوان العرب فى «زمن الرواية» ١٢٦
- قوة اللغة السَّرْدية قوام الدّراما ١٢٧

الموضـــــوع الصفحة

- الدِّراما.. بين سِحْر اللغة واسْتِلاب الصُّورة ١٢٩
- سمات لغة الدراما ١٣٢

اللغة والقوة والمقدس الدينى ١٣٤

أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ١٣٤

(١) حفظ اللغة العربية حيَّة على ألسنة المسلمين فى بقاع الأرض كلها ١٣٤

(٢) استقرار اللغة العربية ١٤٧

(٣) تهذيب اللغة العربية ١٥٢

(٤) توحيد لهجات العربية ١٥٦

(أ) اختلاف هيئة النطق للكلمة الواحدة ١٥٦

(ب) اختلاف معانى الكلمات ١٥٦

(جـ) اختلاف تركيب الكلمات ١٥٧

(٥) إثراء وتنمية اللغة العربية ١٥٩

(٦) سعة انتشار اللغة العربية ١٦٣

(٧) القرآن مفجِّر علوم العربية ١٦٣

- الهوامش ١٦٧

مقـدمــة

اللغــة:

سر عظيم فى حياة الناس... قوة جبارة فى حيـاة البشر... آية من آيات الله الخالدة. فى البدء كانت الكلمـة، كلمـة تبنـى أمة وتصنع عظيمًا، وكلمة تقتل أملًا وتهدم إنسانًا.

إنها الهوية والذات والأنا ... إنهـا التـاريخ والثقافـة. إنهـا العصا السحرية التى من خلالهـا تفـرض السياسـة سـلطتها؛ فهى أداة التضليل وصناعة الزيف، وهى فى الحرب أخطر من كل الأسلحة، إنها السلاح الفتَّاك فى الحروب الإعلاميـة، وإذا كانت الحرب خدعة فاللغة عين الخدعة.

إنها محور ارتكاز القوة الناعمة فى العمل الفنـى، فالـدراما فن حىّ وتشكيل جمالى يقوم على نص مبدع.

وهى كذلك انعكاس للإنسان وصفاته؛ فإذا كان الإنسان نبع خير فلغته كذلك، تصنع الخير والنبل والمكارم، وإن كان الإنسان شريرًا فلغته كذلك، تصنع الشر وتزرع الفتن.

إنها أداة عبقرية لغسيل المخ وبرمجة العقول وتغيير الأفكار. نعم، إنها الكلمات، وما أدراك ما الكلمات؟! تستطيع أن تُنير عقولنا ... تداعب مشاعرنا ... تُواسينا ... تُثير حماستنا وتُشْعِل لهبَ قلوبنا، وتستطيع - فى الوقت نفسه - أن تصفعنا على وجوهنا، تُثير أعصابنا (تزعجنا)، تقْتُل رغباتنا، بل تُدمِّر ثقتنا بأنفسنا.

كل هذه صُوَر مجازية لما يُمْكِن أن تفعله اللغة بنا، وهذا بالطبع يَعْكِس قوَّتها؛ فالكلمة أقوى من الفِعْل المادّىّ فى قدرتها على إثارة مشاعرنا وتحريكها؛ فقد لا يَتْرُك الإيذاء اللَّفْظِىّ آثارًا مادّيَّة لرضوض أو كدمات أو عظام مكسورة،

كتلك التى يتركها الإيذاء الجسدىّ، إلّا أن تأثيره أقوى منه وأبلغ، وصدق القائل:

«جراحات السنان لها التئام ∴ ولا يلتام ما جرح اللسان»

من هنا كان التلاعب بالكلمات سلاحًا فتَّاكًا يُسهم فى إعادة رسم الخريطة الجغرافية والسياسية واللغوية، وفى ظهور تكوينات جديدة؛ لغوية وجغرافية وسياسية، قسرًا وعنوة، فالأرض لا تُقطع وحدها بل تقطع معها عقائد وسياسات وثقافات.

وفى معركة الحياة والوجود للعرب والمسلمين - ليست اللغة بمعزل عن الصراع، إنها فى قلب الحدث.

وفى المباحث التالية استعراض لهذه المعانى فى إطار ما أُطلق عليه ثورات الربيع (الخراب) العربى ودور اللغة فى الفوضى

الخلاقة (الهدَّامة) لاستلاب الهوية العربية والإسلامية.

إنها محاولة لإيقاظ الوعى وتصحيح الفكر للوقـوف عـلى الحقائق، لإنقاذ أمتنا وهويتنا .. إنه الأمل فى المستقبل.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

[هود: ٨٨]

محمـد داود
فى ٢٠١٦/١/١
بمكتبة العلماء

ما اللغة Language؟

« الصوت البشرى طاقة تعبيرية بلا حدود»

تعدَّدت تعريفات اللغة عند القدماء والمحدَثين، وركَّز كل فريق منهم - بطبيعة الحال - على النواحى المهمة - من وجهة نظره - وأبرَزَها فى تعريفه لها.

ومن أهم تعريفات علمائنا القدامى التى تعكس حِسًّا لغويًّا مُرْهَفًا، ودِقَّة ملاحظة، تعريف «ابن جنى»: «حدُّ اللُّغة: أصوات يُعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم»[1].

وقد نال هذا التعريف اهتمام اللغويين العرب المحدثين بوصفه تعريفًا سابقًا لعصره، جامعًا مانعًا؛ إذ بلور أهم الحقائق المهمّة الكاشفة عن طبيعة اللغة، وقدم وعيًا باكرًا بأهم وظائفها؛ تلك هى: (الطبيعة الصوتية، والطبيعة الاجتماعية، والوظيفة النفعية والإعلامية).

ويلتقى تعريف «اللغة» فى علم اللغة الحديث - على تنوع مدارسه- مع تعريف «ابن جنى» لها حول هذه الحقائق الأساسية، لكنه يضيف إليها حقائق أخرى كانت ثمرةً لتطوُّر هذا العلم من خلال الدراسة العلمية. ومن بين التعريفات الحديثة للغة نختار هذين التعريفين:

أ - تعريف اللغوى السويسرى «دي سوسير» *De Saussure*:

«اللغة نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية فى أذهان الجماعة اللغوية، تحقق التواصل بينهم، ويكتسبها الفرد سماعًا من جماعته» (٢).

ب- تعريف «روي إس هجمان» *Roy S. Hagman*:

«اللغة قدرة ذهنية مُكتسَبة يمثلها نَسَقٌ، يتكوَّن من رموز اعتباطية منطوقة، يتواصل بها أفراد مجتمع ما»(٣).

ومن مجمل التعريفات السابقة، يمكننا استخلاص أبرز الملامح المميِّزة للغة؛ وأهمها ما يلى:

١. الطبيعة الصوتية للغة.
٢. الطبيعة الاجتماعية للغة.
٣. الوظيفة النفعية والإعلامية للغة.
٤. اللغة متغيرة.
٥. اللغة مكتسَبة.
٦. اللغة نَسَقٌ كُلِّيٌّ ونظام علاماتى متكامل.
٧. اللغة مُواضعة عُرْفية.

وتتجلى أهمية اللغة فى كونها أداة إبانة الإنسان عن فكـره، ووسيلة تعبيره عن ذاته، وقناة تواصله مع سـواه، وهـى - مـن هذا المنطلق- نعمة من أعظم نِعَمِ الله تعالى على الإنسـان، ولا غرو؛ فقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى نعمة البيان عقب نِعْمـة الخلق مباشرة؛ قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (٢) خَلَـقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَان (٤) ﴾ [الرحمن].

كما تتجلى عظمـة اللغـة فى الحيويـة والقـدرة الفائقـة عـلى إعادة التوظيف الدائم للكلمات للتعبير عن كل جديد وحادث.

اللغة والإنسان:

علاقة الإنسان باللغة قديمة قِدَم الوجود الإنسانى نفسه، على أنها متعدِّدة الأطوار، دائمة التنامى والتحوُّر والتجدد؛ فمنذ لحظة الميلاد اللغوى الأولى للإنسان - حين عَلَّم الله آدمَ الأسماء، وأودعه القدرة اللغوية - واللغة تنْمو نموًّا نشهد معه مواليد جديدة تضاف إلى لغات البشر، ووفيات من لغات أخرى تندثر وتموت.

وقد تعدَّدت اللُّغات وتنوعَّت حتى أصبح ما يحيا منها على ألسنة البشر فى حياتنا المعاصرة قُرابة ثلاثة آلاف لغة[٤]، هذا بخلاف اللهجات المتعددة داخل كل لغة، والتى بإضافتها إلى عدد اللغات الحية، يصل العدد إلى أكثر من خمسة آلاف لغة. وتعالى الله القائل: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُم**﴾ [الروم: ٢٢]. فسبحان من خلق فسوّى، وقدّر فهدى!

واللغة انعكاس للإنسان وصفاته؛ فإذا كان الإنسان نبع خير وفضيلة فإن لغته ستكون كذلك، وإن كان الإنسان

شريرًا فستكون لغته انعكاسًا لذلك؛ حيث تظهـر عـلى لسـانه الألفـاظ التـى تسـتخدم فى ابتـزاز النـاس وتُسـهم فى تشـويه الحقائق وصناعة الزيف.

اللغة والدرس اللغوى الحديث:

تشهد الدراسات اللغوية الحديثـة تقـدُّمًا ملحوظًـا، بـالغ الثراء والتنوع - كمًّا وكيفًا- أشـبه مـا يكـون بطفـرة معرفيـة؛ إذ تخطَّت تلك الدراسـات حـدود الاهـتمام بلغـة بعينهـا، إلى دراسة اللغة عامّة، كما تجاوزت حدودَ دراسـة اللغـة بوصـفها وسيلة وأداة، إلى دراسة اللغة فى ذاتها ولذاتها، وإلى دراسة أثـر اللغة فى كل جوانب الحياة البشريَّة، وما عساها تتماسّ معه من مظاهر السلوك الإنسانى اجتماعيًّا وحضاريًّا.

ومع بدايات القرن التاسع عشر- وقـف البحـث العلمـى وقفات متأنية للبحث عـن كُنْـه اللغـة وطبيعتهـا ووظائفهـا، وخطا باللغة خطـوات واسـعة عـلى طريـق العلـم والـدَّرْس

المنهجى؛ وبذا تحوَّل الدرس اللغوى من الفرضيات النظرية العامة، إلى الملاحظات العلمية والدقة المنهجية.

ومع مَطْلع القرن العشرين تحدَّدت ملامح هذا العلم ومناهجه ومجالاته؛ فأفاد الدَّرس اللغوى المعاصر من إجراءات النظريات العلمية، وأحسن استلهام صيغها ومقولاتها - درسًا وتحليلًا - على أتمّ وجه.

ومع بدايات القرن الحادى والعشرين أتاحت التقنية الحديثة آفاقًا جديدة فى مجال لغة الحاسوب وشبكة المعلومات.

ولما كانت اللغة من الوسائل والأدوات الجوهرية الضَّاربة بجذورها فى تضاعيف العلوم الأُخْرى على كثرتها وتنوعها، فضلًا عن كونها أصْلًا لبعض العلوم - فإن الدرس اللغوى لم يَعُد وقفًا على أهل اللغة، ولا حكرًا على اللغويين وحدهم دون سواهم؛ بل امتدَّ التوفُّر العلمى عليها لحيِّز اهتمام أرباب العلوم الأخرى المتماسَّة والمتقاطعة مع الدَّرْس اللغوى بشكل أو بآخر.

وكان من ثمار هذا الفَتْح العِلْمى أن أفادت علوم اللغة من مُعْطيات عدد هائل من العلوم البينية؛ فنشأ مجـال علـم اللغـة التطبيقى، واتَّسع مفهومه ليشمل سائر الفـروع المعرفيـة التـى ترتبط باللغة؛ من ذلك:

علم اللغة الاجتماعى، وعلـم اللغـة النفسـى، وعلـم اللغـة الإعلامـى، وعلـم اللغـة السياسـى، وعلـم اللغـة الحاسـوبى والمعلوماتى، وعلم اللغة الجنائىّ... إلخ، ولا تزال رحلـة العلـم تنفتح بنا كل لحظة على آفاق رحيبة من المعرفة الإنسـانية الخصـبة الثرية، وتُوقفنا على حقائق جديدة من مُسْتجدَّات العلم الحديث ومُنْجزاته، على النحو الذى يجعلنا أكْثر دِراية وأوْسع معرفة بهـذا السِّرِّ العظيم المهيمن على مفاصل حياتنا؛ وهو «اللغة».

ما القـــوة Power؟

«القوة قدرة متجددة للتمكين والهيمنة»

القُوَّة فى الأصل اللغوى هي: الخُصْلة الوَاحِـدَةُ مِـنْ قُـوَى الحَبـل، وَقِيـلَ: القُـوَّة: الطَّاقَـةُ الْوَاحِـدَةُ مِـنْ طاقـاتِ الحَبْـل أَو الوَتَر(٥)؛ ففِى حَدِيثِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ: «لَيُنْقَضَنَّ الإِسلامُ عُـرْوَةً عُرْوَة كَمَا يُنْقَضُ الحبلُ قُوَّةً قُوَّة». [أخرجه أحمد فى مسنده].

وتقع الكلمة فى مجال دلالى واسع المدى، يظهر ذلـك مـن الكلمات التى تقع فى فضائها الدلالى، وتستعمل مرادفـات لهـا (الترادف هنا: بمعنـى تقـارب المعنـى ولـيس بمعنـى تطـابق المعنى). وأهم هذه الكلمات:

(الشـدة، الصـلابة، الإحكـام، المـنَعة، القُـدْرة، البَـأْس، السَّـيْطرة، الـتَّحكُّم، النُّفـوذ، السُّـلطان، العُنْف، النَّشاط، الحركة، الطَّاقة).

وفى القرآن الكريم تأتى كلمة (القوة) بدلالات وثيقة الصلة بالأصل اللغوى الذى انبثقت عنه وهو (الخُصلة المُحْكَمة من قُوَى الحبل)، وهذه الدلالات نبينها على النحو الآتى:

١ـ بمعنى: الشدة والصلابة

كما فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾ [القصص: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾ [القصص: ٧٦].

٢ـ بمعنى: الإحكام

كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا** ﴾ [النحل: ٩٢].

٣ـ بمعنى: العزة والمنَعة

كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ الله شَدِيدُ الْعَذَابِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٤ـ بمعنى: القدرة

كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا** ﴾ [الكهف:٣٩].

٥ ـ بمعنى: الأنصار والأعوان

كما فى قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ [النمل: ٣٣] .

٦ ـ بمعنى: العُدَّة والعَتَاد

كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال:٦٠].

٧ـ بمعنى: الاهتمام والجد والعناية

كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة:٦٣].

وقوله تعالى:﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢].

وقد توسَّع الاستعمال اللغوى المعاصر فى استخدام «القوة»؛ لتأتى بالمعانى الآتية:

- **العنف**، كما فى قولنا: «تميل الجماعات الإرهابية إلى استخدام القوة».
- **المجموعة من أفراد الجيش أو الشرطة**، كما فى قولنا: «داهمت قوَّةٌ من الشرطة وَكْرَ المجرمين».
- **السيطرة والنفوذ**، كما فى قولنا: «تسعى الولايات المتحدة لأن تكون عنصر القوة فى المنطقة»، وقولنا: «تحرص إسرائيل على أن تظل القوة النووية الوحيدة فى المنطقة».
- **القدرة على التأثير وصنع القرار (فى المجال السياسى)**، كما فى قولنا: «مَرَدَت الدُّول العُظْمى على التلاعب بموازين القوة بما يحقق مصالحها فقط».

المدى الدلالى لفضاء معنى القوة:

تتنوَّع القوة بتنوع مجالات الحياة؛ سياسية، ودينية، وثقافية، واقتصادية، وعلمية، وعسكرية... إلخ، وتُفرّق الدراسات الحديثة بين القوة الناعمة؛ مثل: الفنون والإعلام والتكنولوجيا، فى مقابل القوة الصُّلبة التى تتمركز فى القوة العسكرية.

وظهر فى إطار الثورة المعلوماتية والتقنية الحديثة عبر شبكة المعلومات الدولية (Internet) مصطلحات: القوة الذكية، القوة الافتراضية، وكلا المصطلحين يعتمد على المعرفة التكنولوجية، واستغلال الفضاء الإلكترونى، وظهر فى هذا السياق مصطلحات من قبيل: الحرب الإلكترونية، والإرهاب الإلكترونى.

وتُعدُّ الثورات العربية دليلًا فعليًّا وبرهانًا ملموسًا على صحة ذلك؛ فتدفُّق المعلومات وسرعة التنسيق فيما بين قوى الثورة، عبر مواقع التواصل الاجتماعى «تويتر» Twitter و«فيسبوك» Facebook؛ كان من عوامل نجاح هذه

الثورات. وفى ذلك، يقول «جوزيف ناى» Joseph Nye:

«إن انخفاض تكاليف التكنولوجيا ساعد على تـدفُّق غـير عادى للمعلومات فى دول مثل مصر، التى شهدت نموّ طبقـة متوسطة تمكّنـت مـن التكنولوجيـا الجديـدة، التـى سـمحَت بالتنسيق فيما بين أعضائها.

فـالثّورة ليسـت ثـورة «تـويتر» Twitter، ولكـن الثـورة المعلوماتية هى التـى سـاعدت عـلى تمكـين تـويتر وفيسـبوك. فصـحيح أن الثـورة ربـما ترجـع إلى عوامـل داخليـة، ولكـن التوقيـت، وسرعـة وتـيرة الثـورة ـ اللـذين يعزوهمـا بعـض المتابعين إلى «تويتر» *Twitter* ـ فاجأا القوى الخارجية، بـما فى ذلك الولايات المتحدة»[٦].

سرعة تغير مفهوم القوة

تُعدُّ القوة من أكثر المفاهيم التى تتطور مع السياق المحـيط بها، حتى إنه يصعب تحديد نقطة النهاية فى دائرة حيـاة مفهـوم القوة؛ ففى كل مرة يقع حدث كبير فى العالم، يـتم الحـديث فى

الدوائر الأكاديمية ودوائر صُنْع القرار عن ضرورة إعادة النظر فى القوة وعناصرها، وما ارتبط بها من «تقييمات» خاصة بأشكال القوة، والتى من أشهرها أن القُوَّة العسكرية هى «الشكل النهائى» للقوة، ثم حلت القوة الاقتصادية محلّ القوة العسكرية؛ وهكذا يظل مفهوم القوة من أكثر المفاهيم تحولًا وتغيرًا واستمرارًا.

لقد كان للأزمة المالية العالمية التى شهدها العالم منذ (٢٠٠٨م)، والمخاوف من تطورها خلال العام التالى - دورٌ مهم فى عودة الحديث عن انتقال القوة من الولايات المتحدة والدول الأوروبية إلى الصين، وفى هذا إشارة إلى تزايد أهمية الاقتصاد فى تمكين الدولة من التأثير فى العالم. ولكن قابل هذا الاتجاه اتجاه آخر يتحدث عن أنَّ القوة الاقتصادية غير كافية، وأن القوة العسكرية للدولة هى القوة المركزية. وهذا الجدل يعطى مبررًا للسؤال الذى طرحه «جوزيف ناى» Joseph Nye فى أحد مقالاته، حول أهمية القوة الاقتصادية، وما إذا كانت قد حلت محل القوة العسكرية؟ أم لا؟

وتفيد متابعة التطورات فى إقليم الشـرق الأوسـط بـأن هنـاك «حدودًا» للاستخدام «التقليدى» للقوة، حتى من قِبَـل الولايـات المتحدة؛ حيث كشفت عن اسـتخدامات «غـير تقليديـة» للقـوة. وتُقدِّم أزمة البرنامج النووى الإيرانى مثالًا جيدًا؛ فعلى الرغم مـن حديث إسرائيل المتكرر عن توجيه الضـربة العسكرية لإيران منـذ سـنوات، وتأكيـد إدارة أوبامـا أن الخيـار العسـكرى لا يـزال مطروحًا، إلا أن «الضَّـرْبة» لم تُنَفَّـذْ حتـى الآن. وفى المقابـل، نُفِّـذَ هجوم «افتراضى»، استَهْدف البنية التحتية الإلكترونيـة للبرنـامج الإيرانـى، عـن طريـق الفـيروس الإلكترونـى - بـالغ التطـور - (ستاكس نت) Stux net.

كما تُقدم الثورات التى شهدتها المنطقـة العربيـة، خـلال عام (٢٠١١م)، مثالًا آخر؛ حيث أعادت الحديث مجددًا عمَّن يملك القـوة والقـدرة عـلى التـأثير داخـل الـدول، هـل هـى الحكومة؟ أم المجتمع؟ أم الشارع؟ على نحو يُعيـد التفكـير فى مقولة «هانز مورجنثاو» Hans Morgenthau بـأن «**الإنسـان وُلِدَ للبحث عن القوة**».

وتثير الثورات العربية كذلك تساؤلات خاصة بخريطة انتشار القوة فى المنطقة، خاصة بعد أن نجحت الثورات فى كلٍّ من مصر وتونس وليبيا فى تغيير النُّخَب الحاكمة، وذلك من قبيل: ما الذى تحتاج إليه دولة مثل مصر أو تونس لتتّبع سياسة خارجية مؤثرة، أو لِلَعِب دور إقليمى فعال؟ وكيف ستتعامل الدول الغربية مع دول الثورات؟ فمن ناحية، أعادت هذه الثورات الاهتمام بعناصر القوة التى تمتلكها الدول، وبسياسات استخدام القوة، وعزّزت من أهمية أشكال أخرى للقوة، ترتكز على «سياسات» استخدام القوة، مثل القوة الذكية، والقوة المدنية؛ حيث يُلاحَظ أن دول المنطقة، بما فيها الدُّول الصغيرة مثل قطر، اتجهت لاستخدام «مُرَكَّب» من عناصر القوة، منحها نفوذًا وتأثيرًا، يفوق حجم النفوذ والتأثير الذى تتمتَّع به دول عربية أخرى، تتفوَّق عليها من حيث إجمالى مُقدَّرات القوة التى تمتلكها؛ مثل السعودية ومصر.

ومن ناحية أخرى، طرحت الثورات العربية تحدّيات للولايات المتحدة، باعتبارها القوة الكبرى فى عالم اليوم؛

حيث هزَّت هذه الثـورات «مرتكـزات» القـوة الأمريكيـة فى المنطقـة؛ فكـما تـرى وزيـرة الخارجيـة الأمريكيـة السـابقة، «هيلارى كلينتون»، أن هذه الثورات خلقت «عالمـًا جديـدًا، وعلينا أن نُحدِّد كيف سنتكيَّف معه»(٧).

جدلية اللغة والقوة:

علاقة اللغة بالقوة علاقة جدلية؛ كلاهما يـؤثر فى الآخـر، فالفكر القوى الواضح لغتـه واضـحة، والأُمَّـة القويـة لغتهـا قوية، فاللغة مثل العملة النقدية قوتها من قوة أهلها.

وفى المقابل، فإن اللغة قوة لها فعل السـحر، وسـلطان لـه الهيمنة على أفكار الناس وعقولهم، ومصدر قـوة اللغـة يتـأتى من جهتين:

الأولى: القوة الذاتية للغة، والتى تتمثَّل فى قوة نَسَق لغـة مـا فى نظامها الصوتى والصـرفى والنحوى والدلالى، مما يجعلها جديرة بالقيام بدورها بكفاءة وتميُّز، وبـالنظر

إلى اللغة العربية نجد هذا النسق الذى يتميز بالوضوح الصوتى وسهولة النطق، وعدم التنافر بين أصوات الكلمة مع فصاحة الأداء وجماله، وعلى المستوى الصرفى تتميز العربية بالأوزان السهلة الميسورة، وعلى المستوى التركيبى تتمتع بالتماسك بين مفردات الجملة، وعلى المستوى الدلالى نجد وفرة المفردات والقدرة الفائقة على التعبير عن المعانى بدقة وإحكام، مع مرونة هذا النسق وقدرته على التطور استجابة لكل جديد وحادث من الأشياء والمعانى، ووفاء لحركة الحياة فى جميع الأنشطة والعلوم المختلفة.

الثانية: كونها وسيلة وأداة مرنة للتأثير فى فكر الناس ومواقفهم الحياتية والسياسية والاقتصادية والدينية .. إلخ، فاللغة هنا وسيلة للوصول إلى القوة. إن فن الكلمة له

أبلـغ الأثــر فى النفــوس، وفى الأثــر «إن مــن البيــان لسحرًا»، وجراح اللسان «الكلمة» أخطر مـن جـراح السلاح، ومن الحِكَم المشهورة قول الشاعر (يعقـوب الحمدونى):

«جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان»

ونظرًا للتأثير البالغ لقوة الكلمة وجب أن تكـون بنـاءة شريفة، وما أروع ما عبر به عن ذلك الشاعر «أحمد مطر» حين قال:

أيهـا الكاتـب ذو الكـف النظيفـة
لا تسودها بتبييض مجلَّات الخليفة

...

كـلُّ حــرف فى مجـلَّات الخليفـة
لـيس إلا خنجـرًا يفـتح جُرحًـا
يـــــدفع الشـــــعب نزيفـــــه!

...

أكـــــــــل عيـــــــــش ..
لم يمـــت حـــرٌّ مـــن الجـــوع
ولم تأخـــــــــــــــــذه إلا
مـــن حيـــاة العبـــد خيفـــة
لا . . ولا مـــن موضـــع الأقـــذار
يســـترزق ذو الكـــف النظيفـــة
أكـــــــــل عيـــــــــش ..
كســـــــــب قـــــــــوت
إنه العـذر الـذى تعلِكُـهُ المـومس
لو قيـل لهـا: كـونى شريفـة! "[٨]

فالقتل بالكلمات أبشع أنواع القتل؛ فالكلمة الواحدة تبنى أُمَّة وتصنع عظيمًا، وقد تقتل أملًا وتهدم إنسانًا.

وكى تكون الكلمة مؤثرة وفاعلة ينبغى أن يتوفَّر لها الاعتبارات الآتية:

- ماذا تقول؟
- ولماذا تقول؟
- ومتى تقول؟
- وأين تقول؟
- وكيف تقول؟

والتركيز فى دراستنا هذه على اللغة بوصفها وسيلة للوصول إلى القوة فى شتى مجالات الحياة، على نحو ما يتم توضيحه فى المباحث التالية:

اللغـة والقـوة والهويـة

الهوية بضم الهاء: كلمة مُركَّبة من ضـمير الغائـب «هـو» مضافًا إليه ياء النسبة، للدلالة على السـمات المميِّـزة لشـخصٍ أو مجتمع أو أُمَّة بين الأُمَم. وفى إطار صراع الحضارات فى ظل العولمـة والأزمـة التـى تواجـه كيانـات عديـدة فى المجتمـع البشرى: من الضعف والتهمـيش والإقصـاء أمـام الكيانـات الأقوى، تحاول تلك الكيانات دعم هويتهـا وإبـراز ملامحهـا؛ وفى هذا السياق قفزت على السطح أسئلة مستحقة:

من أنا؟ ومن الآخر؟ وما موقعى من الآخر؟ وأين هـو منِّى؟ وماذا أضيف إلى الآخر؟ وما قيمتى المضافة فى التـاريخ البشـرى؟ وهـل مـا زلـت أملـك القـدرة عـلى العطـاء، أم جَفَّ المعين؟! وهل أملك القدرة على البقـاء؟! أم سـأكون فى سلَّة التابعين؟!

وهُوية أى مجتمع أو أُمَّة تتمثَّل فى ثلاثة أمور رئيسة، هى:

أ- الــدين.

ب- الثقافة بقسميها المادى والمعنوى.

جـ- اللغة: فاللغة هى المظهر الفكرى والثقافى الـذى يُميِّـز مجتمعًا عن مجتمع وأُمَّة عن أُمَّة.

وهكذا، فاللغة لها دور محورى فى تكوين ودعـم هويـة أى أُمَّـة أو مجتمـع، ولـذلك - عـلى المسـتوى العربـى - يحـاول الاختراقُ الثقافى - قدر استطاعته - القيـامَ بعمليـة التغريـب اللغوى ليكون مُقدِّمة وسبيلًا لمسخ الهوية واستلابها.

اللغة والتغريب:

المتأمل للواقع الثقافى واللغـوى يـرى بوضـوح كيـف أن الإنجليزية والفرنسية تهاجمـان العربيـة فى عُقـر دارهـا؛ فهـذه مدارس اللغات التى يتزاحم الناس عليها، والتعليم فيها يـتم بلغة أجنبية، مع تضييق الخناق على العربية فى أرضها؛ ممَّـا أدى

إلى ازدواج الثقافة فى المجتمع، فهناك ثقافة أجنبية فى هذه المدارس، وهناك ثقافة قومية فى المدارس الحكومية، وهما ثقافتان متعارضتان فى الأعم الأغلب.

ومن الاختراق الثقافى الذى يهدف إلى مسخ الهوية إطلاق الولايات المتحدة مشروعها «الشرق الأوسط الجديد» وآلية التحقيق تتمثل فى الفوضى الخلاقة (الهدّامة) وسماح الحكومات العربية بإنشاء إذاعات وفضائيات إقليمية تبث باللهجات العامية مختلطة بعبارات وكلمات إنجليزية، بالإضافة إلى تقلُّص حصة العربية الفصحى لصالح العامية فى وسائل الإعلام الوطنية بحجة تقريب المعرفة إلى فهم عامة الشعب.

وهذا ضرب من التغريب نشأ عنه ضعف فى العربية، وقادنا إلى التلوث اللغوى الذى نرى آثاره فى هذه اللافتات التى كُتِبَت فيها كلمات إنجليزية بحروف عربية مثل: شوبنج سنتر، دريم لاند، سوبر ماركت، مول، سنتر ... إلخ. ويستمر التغريب فى كل نواحى المجتمع من سلوك وأنماط الثقافة

المختلفة فى الملبس والمأكل والحوار ونظام العمل للمرأة، وغير ذلك[٩] من الأمثلة الصارخة فى هذا السياق التغريبى.

مصطلح «الجندر Gender»

ظهر مصطلح الجندر Gender بمعنى: «النوع الاجتماعى» فى سبعينيات القرن الماضى، وذلك لوصف خصائص الرجال والنساء المحددة اجتماعيًّا فى مقابل تلك الخصائص المحددة بيولوجيًّا، وارتبط المصطلح بسياسات دعم أوضاع المرأة وقضايا المساواة بين الرجل والمرأة، وكاتجاه عام فإن المصطلح يشير إلى التفرقة بين الذكر والأنثى على أساس الدور الاجتماعى لكل منهما، تأثرًا بالقيم السائدة.

وفى هذا السياق، تتطلب عملية استجلاء مفهوم الجندر «النوع الاجتماعى» التمييز بينه وبين مفهوم الجنس Sex «النوع البيولوجى»، فبينما يقتصر مصطلح الجنس Sex على الاختلافات البيولوجية بين الرجل والمرأة، وهى فروق ثابتة وأبدية، نجد أن مصطلح الجندر مفهوم متغير؛ حيث تتفاوت

الأدوار التى يلعبها الرجال والنساء تفاوتًا كبيرًا بين ثقافة وأخرى، ومن جماعة اجتماعية إلى أخرى فى إطار الثقافة نفسها، فالعِرق، والطبقة الاجتماعية، والظروف الاقتصادية، عوامل تؤثر على ما يعتبر مناسبًا للنساء من أعمال. ولذا فإن طرح مفهوم الجندر كبديل لمفهوم الجنس يهدف إلى تأكيد أن جميع ما يفعله الرجال والنساء، وكل ما هو متوقع منهم، فيما عدا وظائفهم الجسدية المتمايزة جنسيًّا، يمكن أن يتغير بمرور الزمن تبعًا للعوامل الاجتماعية والثقافية المتنوعة.

ويرى أنصار مفهوم الجندر Gender «النوع الاجتماعى» أنه يعبر عن اجتياز آخر الحواجز على طريق تحقيق العدالة بين الرجال والنساء؛ لأنه يشمل التحول فى المواقف والممارسات فى المجتمعات كافة (المرأة وحقوق الإنسان)[١٠].

ويرجع استخدام مصطلح «الجندر» إلى منظمة العمل الدولية، وهو مصطلح يشير إلى العلاقات والفروقات بين الرجل والمرأة التى ترجع إلى الاختلافات بين المجتمعات والثقافات، والتى هى عرضة طوال الوقت للتغيير.ومصطلح

«الجندر» لا يُعدُّ بديلًا لمصطلح «الجنس» الذى يشير بدوره إلى الاختلافات البيولوجية بين الرجال والنساء، وبمعنى آخر فإنه يمكن استخدام مصطلح الجنس فى التعدادات الإحصائية، أما «الجندر» فيستخدم فى تحليل الأدوار والمسؤوليات والحاجات الخاصة بكل من الرجال والنساء فى كل مكان وفى أى سياق اجتماعى.

وقد دخل مفهوم الجندر إلى المجتمعات العربية والإسلامية مع وثيقة مؤتمر القاهرة للسكان عام ١٩٩٤م، إذ إنه ذُكر فى (٥١) موضعًا فى هذه الوثيقة، منها ما جاء فى الفقرة التاسعة عشرة من المادة الرابعة من نص الإعلان الذى يدعو إلى تحطيم كل التفرقة الجندرية، ولم يُثر المصطلح أحدًا؛ لأنه تُرجم بالعربية إلى (الذكر / الأنثى)، ومن ثم لم يُنتبه إليه.

ثم ظهر المفهوم مرة أخرى ولكن بشكل أوضح فى وثيقة بكين عام ١٩٩٥م، حيث تكرر مصطلح الجندر (٢٣٣) مرة، ولذا كان لابد من معرفته والوقوف على معناه من معرفة

أصله فى لغته التى وُلـد فيهـا، والتعـرف عـلى ظـروف نشـأته وتطوره الدلالى؛ فقد رفضت الدول الغربية تعريف الجندر بـ: الذكر والأنثى، واستمر الصراع أيامًـا فى البحـث عـن المعنـى الحقيقـى للمصـطلح؛ إذ أصرت الـدول الغربيـة عـلى وضـع تعريف يشمل الحياة غير النمطية كسلوك اجتماعى، ورفضـت الدول الأخرى أية محاولة من هذا النـوع، فكانـت النتيجـة أن عرفت اللجنة المصطلح بعـدم تعريفـه (The Non Definition of The Term Gender).

أما وثائق مؤتمر روما حول إنشاء المحكمة الجنائية الدولية المنعقـدة فى رومـا عـام ١٩٩٨م، فإنهـا تكشـف عـن محاولـة لتجريم القوانين التى تعاقـب عـلى الشـذوذ الجنسـى؛ حيـث أوردت الدول الغربية: «**أن كل تفرقة أو عقـاب عـلى أسـاس الجندر يشمل جريمة ضـد الإنسـانية**»، وكـان إدخـال كلمـة Gender فى تعريف الجرائم بالإنجليزية أمرًا غريبًا فى حد ذاته؛

إذ إن النصين العربى والفرنسى استعملا كلمـة (الجـنس) ولم يستعملا كلمة الـ (جندر Gender)، حيث عُـرِّف الــ (جنـدر Gender)، بأنه: (يعنى الذكر والأنثى فى نطاق المجتمع)، وكـما هو واضح من التعريف، فإن عبارة (نطاق المجتمع) تعنـى أن دور النوع لكليهما مكتسـب مـن المجتمـع، ويمكـن أن يتغـير ويتطور فى نطاق المجتمع نفسه.

أما منظمة الصحة العالمية فتعرفه بأنه: «المصطلح الـذى يفيـد استعماله وصف الخصائص التى يحملها الرجـل والمـرأة كصـفات مركبة اجتماعيًّا، لا علاقة لها بالاختلافات العضوية»[١١].

الخلاصـــــة:

بإيجــاز، هنــاك فــارق بــين الجــنس والجنــدر، فجانــب (الجنس) يتميز بحد أدنى من العوامـل البيولوجيـة التـى تجعلنـا نميـز جسـدًا معينًـا باعتبـاره جسـد امـرأة أو جسـد رجـل. أمـا الجنـدر فهـو قصـة الجسـد الاجتماعيـة أو السـيكولوجية أو الثقافيــة؛ أى أنــه النظــرة الاجتماعيــة أو الســيكولوجية

للاختلاف الجنسى، وهو مجموعة من الصفات المحددة ثقافيًّا، فالجنس مصطلح بيولوجى، أما الجندر فمصطلح اجتماعى.

وهكذا يظهر من خلال مصطلح الجندر دور اللغة فى تغيير الثقافات.

وما من شك فى أن كل ألوان التغريب اللغوى والثقافى إضعاف للهوية، وبالتبعية إضعاف للسيادة الوطنية؛ لأن الوطن حينئذ يكون تابعًا لثقافة الآخر وليس لثقافته الأصيلة التى تعبر عن خصائصه المميزة وعن قيمه العريقة.

التهويـــد اللغـــــوى

« القـــدس نموذجًـــا »

إن كان التغريـب يـتم بخطـى متسـارعة فى الـبلاد العربيـة والإسلامية لصالح الإنجليزية، فـإن التهويـد الصـريح يـتم فى أرض فلسـطين؛ بهـدف فـرض الهيمنـة الصـهيونية والعبريـة، وطمس الهوية العربية والإسلامية لفلسطين، ومن أمثلة ذلك:

القــدس.. والتهويد اللغــوى:

التهويد هو عمليـة نـزع الطـابع الإسـلامى والمسـيحى عـن القدس وفرض الطابع الذى يسمى «يهوديًّا» عليهـا قهـرًا وجـبرًا بقوة السلاح، وبكل سبيل. وتهويد القدس جزء من عملية تهويـد فلسطين ككل؛ ابتداء من تغيير الأسـماء العربيـة إلى أسـماء عبريـة يهودية، ومرورًا بتزييـف تاريخهـا، وانتهـاء بهـدم القـرى العربيـة وإقامة المستوطنات، ودعوة اليهود للاستيطان فى فلسطين!

شواهد لغوية على التهويد:

- **إسرائيل:**

إسرائيل هو سيدنا يعقوب عليه السلام، وهو عَلَم عبرى مكون من جزأين: إسرا، إيل. وإيل هو اسم الله عز وجل فى اللغة العبرية، وأضيف إليه (إسرا) وهذه الكلمة فى اللغات السامية - ومنها العربية والعبرية- تعنى: القوة والشدة، فيكون معنى إسرائيل: قوةَ الله، أو القويَّ بالله.

ويزعم اليهود أن يعقوب عليه السلام، قد صارع الرب فصرعه وأسَرَه فسمى لذلك إسرائيل! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

والحق أن هذا من باب الإضافة، أضيف (الإسر) أو (الأسر) - وهو الشِّدَّة - إلى الله عز وجل كما فى أسماء الملائكة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ... إلخ.

فمعنى (جبرائيل): رجل الله، أى: عبد الله. فكلمة (جبر) تعنى: العبد، والملك، والرجل. وكل ما كان منتهيًا

بإيل فهو مضاف إلى اسم الله عز وجل.

وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم ثلاثًا وأربعين مرة: مضافة إلى كلمتى (بنو ـ بنى) إحدى وأربعين مرة، ومفردة مرتين.

وهناك آية جمعت بين الكلمة مفردة ومضافة، وهى قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: ٩٣].

- **عبرى:**

يرى الفرنسى « إِدواردو» أن كلمة « عبرى » مشتقة من فعل شائع فى كل اللغات السامية، ومنها العبرية والعربية، هو الفعل « عَبَرَ » بمعنى: تخطى واجتاز.

والعِبْر ـ بكسر العين وسكون الباء ـ معناه: الجهة الأخرى من الوادى أو من الجدول الصغير أو النهر، وكانت

تسمية « عبرى » تطلق فى حينها على كل من يهاجر من العراق عابرًا نهر الفرات إلى الشام، وكان اليهود الأُوَل كذلك[١٢].

وجاء فى سفر يشوع (٢٤ / ٢-٣):

« هكذا قال الرب إِله إسرائيل: إن آباءكم سكنوا فى عِبْر النهر منذ الأزل، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى، فأخذت إِبراهيم أباكم من عبر النهر، وسرت به فى كل أرض كنعان، وأكثرت نسله وأعطيته إسحق ».

ونستنتج من هذا النص الموافق للدلالة اللغوية لكلمة «عبر» فى اللغات السامية أنه لم يكن للعبرانيين الإسرائيليين وجود، لا فى أورشليم ولا فى غيرها مما حولها من مدن فى القرن ١٤ ق.م، وهذا على عكس ادعاءات اليهود ومحاولتهم عَبْرَنَة كل شىء فى القدس وعَبْرَنَة تاريخها بكل أحداثه [١٣].

التسميات الصهيونية للمعالم الفلسطينية، وهذه بعض الأمثلة:

الاسم العربى	الاسم الصهيونى
مدينة القدس	عيروشلايم
حائط البراق	الحائط الغربى أو: حائط المبكى حيث يتباكون عنده على هيكل سليمان المزعوم!
مدينة الخليل	عير حبرون
مدينة نابلس	عير شكيم
مدينة جنين	عير جنيم
منطقة حيفا وعكا حتى الليطانى	أشير
منطقة طبرية وبيسان	بساكر
منطقة رام الله	أفرايم
منطقة القدس وشمالها	بنيامين
منطقة جنوب القدس ـ الخليل	يهودا
جبل الرحمة	هار رحاماه
تل أبى هريرة	هارور
تل سيحان	شيحان

اللغة والقوة والفكر

«اللُّغة سلاح سحرى لتغيير الأفكار»

لئن كانت اللُّغة أداتنا الأَهَمَّ والأكثر فاعليَّـة فى التواصـل مع الآخرين، وذلك بالتعبير عمَّا يدور فى عقولنـا مـن أفكـار، وما يَعْتَمِل فى دواخلنا من انفعالات وتأمُّلات ورغبـات، فإنهـا ـ حسبما يـرى بعـض البـاحثين ـ مـن أهـم مصـادر اختلافنـا وصراعنـا الأبـديَّيْن بوصـفنا كائنـات اجتماعيـة؛ فمُنْـذ أن ازدهرت الفلسفة السوفسطائيَّة فى اليونان فى القـرن الخـامس قبل الميلاد، واكتُشـفت إمكانيَّـة اللعـب بـالكلام لأغـراض مُتضارِبة ودونما اعتبـار للواقـع الموضـوعى والحقيقـة، صـار واضـحًا أن اللُّغـة مـن أخطـر المقتنيـات الإنسـانيَّة؛ لكَـوْن مُستخدِميها من البشر قد ينحرفون بها ـ وهم غالبًا ما يفعلـون ذلك ـ عمَّا يُفْتَرض أن تؤدِّيه من وظائف تُسهم فى إزالـة سـوء التفاهم وتحقيق التواصل بين الناس.

فاللُّغة أداة طَيِّعَة فى أيدى مُستعمليها، فمُسْتَعْمِل اللُّغـة هـو مَنْ يُقـرِّر كيـف ومتـى ولأىِّ الأغـراض يسـتعملها. مـن هـذا نتوصَّـل إلى أن اللُّغــة تــؤدى الوظيفــة التــى يُمْليهــا عليهــا مُسـتعملوها فحَسْـب، سـواء أكانـت تلـك الوظيفـة سـلبيَّة أم إيجابيَّة. فإذا شاء المرء أن يُلوِّثها بالإيديولوجيا المُغْلَقَة عـلى ذاتهـا، وبالتدليس، وأن يجعل منها مُنْطَلَقًا لرسم صورة لفظيَّة مُغرِقـة فى الذاتيَّة عن الواقع، استجابت له وأعطته من طاقاتها التعبيريَّـة مـا يجعل الحق باطلًا، والقُـبْحَ جَمـالًا، والنـورَ ظلامًـا. وإذا شـاء أن تكون واضحة ودقيقة فى تصويرها للواقع وفقًا لمـنهج يَسْـتَبْعِد ـ قدْر الإمكان ـ العناصر الذاتيَّـة ويعكـس أكـبر قـدر مُمكِـن مـن مُكوِّنات الواقع بشكل موضوعي، فلـن تبخـل عليـه اللُّغـة بـما لديها من طاقات تعبيريَّة فى مُعاونته فى هذا الأمر.

إذًا، فعلى قدر كفاءة مُسْتَعْمِل اللُّغة الذى يفهـم أسرارهـا وطاقاتها، وإخلاصه لما يريده منها، تكـون جسـامة المسـؤولية الأخلاقية المترتِّبة على العمل الذى تنجزه اللُّغة سلبًا أو إيجابًا.

ومن الواضح أن هذه المسؤولية الأخلاقية لا يُمْكِن أن تُـعزَى إلى اللُّغة نفسها، ولكن إلى مُستعمليها.

خُلاصة القـول: أن اللُّغـة أداة قـد يسـتعملها المـتكلِّم فى مناسبات معيَّنة وسـياقات محـدَّدة للـدخول إلى عقـل الآخَـر والتأثير فى هذا العقل، وقد ينجح فى ذلك؛ لأنـه اسـتعمل أداة ممتـازة حقًّـا. فاللغـة لعبـة - كـما يُطلـق عليهـا «لـودفيج فيتجنشـتاين» Ludwig Wittgenstein - ديناميَّـة فى أصـل تركيبهـا، تنتقـل ألفاظُهـا بلطـف مـن مسـتوى إلى مسـتوى، ولا يستطيع مستعمِلها مُلاحقتها فى تحوُّلاتهـا تمـام الملاحَقـة؛ حيث تنتقل الألفاظ فى حركة دائبة دائمة بـين المعنـى اللغـوى والمعنى الاصـطلاحى، وقـد تَـترَاوح الكلمـة بـين أكثـر مـن مستوى لغوى واصطلاحى فى آنٍ، وقد تُسْتعمَل الكلمة لأكثر من معنى اصطلاحى داخل العلم الواحد، وقد ينتقـل اللفـظ مـن مجـال إلى مجـال مـع اخـتلاف واضـح أو غـير واضـح فى المضمون الاصطلاحى. وتنتقل الألفاظ بين الحقيقـة والمجـاز

بمعناهما العام، ويشمل هذا التعدُّد لغـة العِلْـم حتـى فى أكثـر المصطلحات صرامة وتحديدًا، وهذا الانتقال الـدائم للألفـاظ قد يغفل عنه بعض المتخصِّصين.

جـدير بالـذكر هنـا مفهـوم «غسـيل المـخ» أو «برمجـة العقول»، الذى يُستخدَم فى نشر الثقافات والعقائد والمبـادئ، والذى يدفع الناس لتبنِّـى أهـداف ودوافـع وغايـات معيَّنـة، والذى يُعَدُّ أيضًا شكلًا من أشكال التنويم المغناطيسى.

هكذا تبدو اللغـة قـوةً جبـارة فى حيـاة البشـر الفكريـة والاجتماعيـة والسياسـية، وأداةً فعالـة فى صـياغة الثقافـة وتشـكيل العقـول، سـواء أكـان المـراد بـذلك خـيرًا أمْ شرًّا، وارتقاءً بالعقول أم خداعًا وتدليسًا(١٤).

وفى إطار علم اللغة الحديث توجهـت الدراسـات اللغويـة إلى كشف حقائق جديدة عن جدلية اللغة والفكر وأثر كل مـنهما فى الآخر، فثراء اللغة عمـق للفكـر، وغمـوض اللغـة غمـوض

للفكر، كما تؤثر اللغة بشكل واضح فى تشكيل الفكر، بل إن المتحدثين بلغات مختلفة يرون العالم بطرق مختلفة، واللغة سلاح سحرى فى تغيير الأفكار والمعتقدات(١٥).

واللغة كذلك لها الدور المحورى فى الحرب الناعمة على العقل المسلم؛ بحيث تلعب دورًا فى تقزيم العقل المسلم، من خلال المحاولات الدؤوبة للتشكيك فى كل الثوابت والمقدسات لاستلاب هويته وعزله عن الواقع الفاعل فى الحياة.

اللغة والقوة والسياسة

«اللغة هى العصا السحرية التى من خلالها تفرض السياسة سلطتها»

العلاقة بين اللغة والقوة والسياسة علاقة جدلية؛ كلاهما يؤثر فى الآخر، فاللغة تُعَدُّ أداة مهمة فى الخطاب السياسى، وعاملًا مهمًّا من عوامل الإقناع، والتزوير والتضليل وصناعة التحيُّز، وصناعة الشعارات، واستثارة الرمز اللغوى فى الخطاب السياسى، فاللغة هنا تصنع القوة التى تُغيِّر وتقنع وتُحفِّز وتُضلِّل.

السياسة وقوة الرموز اللغوية:

ليست اللغة أداة لمسرح الأحداث السياسية فقط، وإنما تُعد اللغة جزءًا من الأحداث السياسية نفسها، فهى تُشكِّل معنى الأحداث، وتساعد على تشكيل الأدوار السياسية والسلوك العام للشعب؛ لذلك تتكامل اللغة مع الأحداث، كل منهما يُكمل

الآخر، ويُحدِّد كل منهما معنى الآخر والقصد منه.

فبالنظر - مثلًا - إلى الرموز اللغوية الآتية:

(الأمن)، (الأمن القومى)، (أمن الدولة)، (المخابرات)، (الوطن).

نجد أنها تؤثر فى السلوك السياسى لدى العامَّة حين تستخدم بعض الحكومات هذه الرموز اللغوية لإثارة العامَّة وتحفيزهم إلى تقديم المزيد من التنازلات والتضحيات فى أوقات الأزمات، ومواجهة أعداء الدولة.

أيضًا قد تتسبَّب المصطلحات نفسها فى إثارة نوع من القلق لدى أفراد الشعب حين تلجأ الحكومة لفرض قوانين استثنائية للسيطرة على الأمن، وأوضح مثال على ذلك: قانون الطوارئ فى مصر، فإن كثيرًا من أفراد الشعب ينتابهم القلق بسبب قانون الطوارئ والخوف من إساءة استخدامه.

فمن المهم أن نضع فى الاعتبار الآثار التى تعكسها اللغة السياسية على فكر الناس ومشاعرهم وسلوكياتهم.

الخطاب السياسى واستثارة الرموز اللغوية :

يلجأ الخطـاب السياسـى إلى اسـتثارة الرمـوز فى عقـول ونفـوس المخـاطبين مـن أفـراد الشـعب كـى يـتمكَّن مـن تحقيق أهدافه.

فحين يكون الهدف صرف الناس عـن أمـور معينـة فإنـه يصف هذه الأمور، وتلك الأعمال بأنها: تمرُّد، تخريب، خيانة، مُناهَضة للسلطة، قلب نظام الحكم، جماعة محظورة، إرهـاب، تطرُّف، تمويل خارجى، أجندات أجنبية ...إلخ.

وفى المقابل فإن الأمور نفسها يمكـن وصـفها بأوصـاف إيجابية تثير فى النفس رضًا، وفى العقل اقتناعًا، فيمكن مثلًا أن نجد الأوصاف الآتية:

ضحايا الفقر، ضحايا الجهل، ضغوط نفسية ... إلخ.

ولنضرب مثلًا على هذه المفاهيم: حيـث يمكـن وصـف السجين بأنه: سفاح ومجرم، ويمكن وصفه بأنه ضحية الفقـر، أو مضطرب العقل، أو مظلوم.

وما من شك فى أن هذه التعبيرات السياسية هى رموز لغوية تثير فى عقولنا ونفوسنا اهتمامًا خطيرًا يُؤثِّر على نظرتنا للقضية أو الشخص.

ونجاح السياسة أو فشلها فى الوصول إلى أهدافها فى الإقناع والتواصل مع الشعب وتوجيه أفراده نحو الهدف السياسى المطلوب، يتوقف على حسن توظيف الرموز اللغوية التى لها رصيد فى عقول أفراد الشعب ونفوسهم.

وعلى المستوى العالمى تظهر هذه الحقيقة فى إطلاق أمريكا جملة من التعبيرات السياسية، واستخدامها كرموز لغوية تثير فى نفوس الشعوب التعاطف مع موقف أمريكا، والاقتناع به أو تبريره - على الأقل - للشعب الأمريكى، ليظل مساندًا لحكومته، ومؤيدًا ومناصرًا لها.

وتظهر ازدواجية الخطاب السياسى الأمريكى فى تعبيرات عدة راجت بصفة خاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ومن هذه التعبيرات:

الحرب ضد الإرهاب:

هذا الرمز اللغوى يثير فى النفس الكراهية والعـداء لكـل ما هو إرهابي، ولكن الإرهاب فى نظر أمريكا كـل مـا يُخـالف مصلحتها، ولا يكون تابعًا ومسلِّمًا لها.

فإرهاب الدولة الذى ترتكبـه إسرائيـل تسـميه أمريكـا: حق الدفاع عن الأمـن، فى حـين تطلـق أمريكـا عـلى مقاومـة المحتل أنه: إرهاب، والإرهـاب الأمريكـى الـذى يتـدخل فى شؤون الدول وينتهك سيادتها، لا تسميه إرهابًـا!! وإنـما هـو رعاية لمصالحها فى العالم.

مما دعـا العـالم اللغـوى الأمريكـى «نعـوم تشومسـكى» Noam Chomsky إلى توجيه هذا السؤال:

هل يمكن الفوز بما يُسمَّى: حرب الأُمَّة على الإرهاب؟

وكانـت إجابتـه: بـأن الولايـات المتحـدة نفسـها دولـة إرهابية، وساق على ذلك شواهد عديدة[١٦]:

- تعرَّضت نيكاراجوا فى الثمانينيات لهجـوم عنيـف مـن

قِبَـل الولايـات المتحـدة راح ضـحيته عشـرات الآلاف مـن سكانها، لقد دُمِّر ذلك البلد تمامًا، وربما لن يستطيع إعادة بناء مـا دمر أبدًا. كان ذلك الهجوم الإرهابى الـدولى مصـحوبًا بحـرب اقتصادية طاحنة، لم تستطع دولة صغيرة تحاصرهـا قـوة عظمـى قاسية تحمُّلها كما يصف مؤرخـو نيكـاراجوا الكبـار مـن أمثـال «توماس ووكر» Thomas Walker.

إن آثار ذلك الهجوم عـلى نيكـاراجوا أقسـى بكثـير مـن المآسى التى حدثت فى نيويورك فيما بعـد. ولم تـرد نيكـاراجوا بإلقاء القنابل فى واشنطن، بل لجأت إلى المحكمة الدولية التـى حكمت لصالحها، وأمرت الولايات المتحدة بـالتراجع ودفـع تعويضات كبيرة. تجاهلت الولايـات المتحـدة قـرار المحكمـة باحتقار وازدراء!! وردت فورًا بتصـعيد الهجـوم؛ لـذا لجـأت نيكاراجوا إلى مجلس الأمن الذى ناقش قرارًا يدعو الـدول إلى الانصياع للقانون الدولى، وصوَّتت ضـده الولايـات المتحـدة

منفردة بالرفض مستغلة حق الفيتو. وحينما لجـأت نيكـاراجوا إلى الجمعية العامة حصلت على قرار مماثل لم يُصوِّت ضـده إلا الولايات المتحدة وإسرائيـل فى عـامين متتـابعين، وانضـمت السلفادور لهما فى أحدهما.

تحاول الحكومة الأمريكيـة الآن اسـتغلال الفرصـة مـن أجل فرض أجندتها الخاصة التى تتمثل فى: خطط التسليح بـما فيها نظام الدفاع الصـاروخى، وتسـليح الفضـاء مـن خـلال التشـفير، والقضـاء عـلى الـبرامج الديمقراطيـة الاجتماعيـة، وتقـويض الاهـتمام بقضـايا مثـل: الآثـار السـلبية للعولمـة الرأسمالية، والبيئة، والتأمين الصحى، وخلافه. وكذلك خلق أُطر مؤسسية للـنظم التـى تقـوم بتوجيـه الثـروة نحـو أقليـة محدودة، مثل منع ضرائب الشركات، وزيادة سلطة النظـام فى المجتمع للقضاء على النقاش العام والمعارضة.

وهكذا تسير الأمور فى مناطق كثيرة حول العالم.

لا أدرى أيضًا أية تسمية تُطلَق على سياسات تُعْتَبَر عاملًا أساسيًّا فى موت حوالى مليون مدنى فى العراق ونصف مليون طفل تقريبًا كثمن، تقول وزيرة الخارجية –«مادلين أولبرايت» Madeleine Albright آنذاك – إننا على استعداد لدفعه، هل هناك اسم آخر لذلك؟ ذلك بخلاف دعم الولايات المتحدة للفظائع الإسرائيلية.

ثم يسوق «تشومسكى» Chomsky المزيد من الأمثلة على إرهاب الدولة الأمريكية، ومن ذلك قيام إدارة «كلينتون» Clinton بمنح تركيا ٨٠٪ من الأسلحة التى سحقت بها الأكراد فى واحدة من أبشع حملات التطهير العرقى.

أو لنأخذ مثالًا آخر وهو تدمير مصنع الشفاء للصناعات الدوائية بالسودان .. سطر قصير فى سجل إرهاب أمريكا سرعان ما نسيناه. كيف سيكون رد الفعل لو أن شبكة بن لادن قامت بتفجير نصف الإمدادات الدوائية فى الولايات المتحدة والمعدات اللازمة لإعادة توفيرها؟ ذلك

بغض النظر عن عدم عدالة المقارنة، فعواقب مثل هذا الفعـل على السودان أشـد بكثـير. مـاذا سـيكون رد فعـل الولايـات المتحدة أو إسرائيل أو إنجلترا لو تعرضوا لمثل هذه البشاعة؟!

أما فى هذه الحالة فنقول: يا للأسف، لقد وقع خطأ غـير مقصود. لننتقل إلى الموضوع التالى ونترك الضحايا يتعفنون!

العمليات الحربية منخفضة الشدة:

طُرِحَ هذا السـؤال عـلى «تشومسـكى»: هـل يمكـن أن تُعرِّف باختصار الاستخدامات السياسية للإرهاب؟ أين يقـع فى نظام المبادئ القائم؟

فأجاب[١٧]: إن الولايات المتحدة ملتزمة رسميًّا بـما يُسـمَّى العمليات الحربية منخفضة الشدة Low-intensity warfare، ذلك هو المبدأ الرسمى.

ولو قـرأت التعريفـات المنضـبطة للعمليـات منخفضـة الشدة وقارنتها بالتعريف الرسمى للإرهاب، كـما فى القـانون الأمريكى أو الكُتيِّبات الصادرة عن الجيش الأمريكى، ستجد

أنهما الشيء نفسه تقريبًا.

محور الشر:

أطلقته أمريكا على دول ثلاث؛ هى: (إيران - العراق - كوريا الشمالية).

فإيران تتبنى الدفاع عن فلسطين ومهاجمة الصهيونية، ومساندة حزب الله وحماس، والعمل على تصنيع السلاح النووى. والعراق التى أنهكتها حرب الخليج، لم يصبح لديها قدرة العدوان على دول الجوار، وإنما المسألة رغبة أمريكا فى وضع يدها على منابع البترول فيها لتكتمل سيطرتها على بترول الشرق الأوسط. وكوريا متهمة بأنها تُصدِّر السلاح لكل من إيران والعراق!!

الدفاع عن الحرية:

الحرية رمز يستثير الشعب الأمريكى، واستخدام هذا الرمز يُحفِّز أفراد الشعب لمساعدة الحكومة ودعمها، و هو ما تمَّ توظيفه فى الإعلام الأمريكى، حيث تردَّدت تعبيرات:

الدفاع عن الحرية، الدفاع عن النفس ... إلخ.

ومن داخل أمريكا يأتى التفنيد لهذه التعبيرات الفضفاضة والحجج الباطلة التى ينطبق عليها مقولة: كلمة حق يراد بها باطل، وجاء التفنيد فى بيان وقَّعه كُتَّاب وفنانون وأكاديميون أمريكيون. ومما ورد فيه:

« والواقع أن حروب (أمريكا) تهدف – بالتحديد – إلى الدفاع عن (قوة) الولايات المتحدة بالخارج. إن الذى تدافعون عنه هو القوة العالمية للولايات المتحدة، وليس الحريات الداخلية، وطريقة الحياة ...».

ومن حقنا نحن أيضًا أن نتساءل عن مفهوم الدفاع عن الحرية أو الدفاع عن النفس، هل هو حق إنسانى جماعى؟ أم هو حق للقوى العظمى التى لا تكترث بالموت والدمار الذى يحل بغيرها من البلاد الفقيرة؟ يقول المُوَقِّعون على البيان السابق: «الإنسانية لها الحق أن تدافع عن بقائها ضد قوى عُظمى ليس لها رادع».

رموز لغوية غامضة:

قد تلجأ الحكومات إلى رموز لغوية غامضة عن طريق التعبيرات غير المحددة لمواجهة القلق والاضطراب لدى أفراد الشعب بشأن قضية ما.

فمثلًا إعلان بعض الحكومات أنها تعمل لرفع المعاناة عن الفقراء، ومساعدة محدودى الدخل؛ مثل إعلان الحكومة (تحريك الأسعار لرفع المعاناة عن الشعب) وإذ بالأسعار ترتفع دون تراجع، مما يُعطى انطباعًا بأن هذه الحكومة تعمل على رعاية الأغنياء وأصحاب الاستثمارات فحسب.

الرموز اللغوية والرأى العام:

تلعب اللغة السياسية دورًا بارزًا فى تكوين رأى عام حول هدف معين أو لصالح قضية ما.

وقد تستخدم الأزمات التى تمر بها الشعوب كرمز مثير لتحفيز أفراد الشعب للالتفاف حول قائده ومساندة حكومته.

وعن طريق اللغة تتم إعادة تشكيل الأزمة والحدث، مع

اقتناء التعبيرات والكلمات التى تحظى برصيد وافر فى عقول ونفوس أفراد الشعب، وذلك على نحو ما حدث فى خُطَب الرئيس الأمريكى «بوش»، والتركيز على قِيَم ورموز لها مكانتها عند الشعب الأمريكى مثل: الحرية، أمريكا فى خطر.

داعش:

تنظيم كونته المخابرات الأمريكية والصهيونية لتشويه صورة الإسلام من جانب، ولإثارة الفوضى من جانب آخر مما يعطى تبريرًا للتدخل العسكرى الأمريكى والدولى بحجة محاربة الإرهاب (داعش)، وبالحروب التى يطول أمدها تُهدم الدول العربية تمهيدًا لتقسيمها إلى كيانات صغيرة متناحرة. لقد تمكنت آلة الإعلام الغربية الصهيونية من جعل داعش صورة تتحدث بالفعل لا بالقول، وكأنها توثيق لكل الاتهامات للإسلام بأنه إرهاب وتخلف ولا يصلح أن يكون كيانًا سياسيًّا فى المشهد المعاصر.

وكما يرى المحللون السياسيون، لا يمكن فصل تنظيم

داعش عن تنظيم القاعدة، بل هو امتداد له مع التغيير فى الأهداف.. وفى تحديد بمن يبدؤون الهجوم؛ على إسرائيل وأمريكا وأوروبا وكل أعداء المسلمين، أم على الأنظمة الداخلية التى هى - فى اعتبارهم - لا تمثل شعوبها، وإنما هذه الأنظمة وصيَّة على شعوبها لصالح الغرب، وحسمت داعش الإجابة: أن المستهدف الجميع، الهجوم على الداخل والخارج.

وتسمية التنظيم بـ « الدولة الإسلامية» يحقق غرضين:

١- تشويه الإسلام بالأفعال المشينة الهوجاء التى تتمركز حول العنف والقتل ذبحًا وحرقًا، والعودة إلى أساليب زمن السبى وبيع النساء والجوارى ... إلخ.

٢- جذب الشباب من خلال هذه التسمية التى تأسر قلوبهم عندما يرون تهاوى الأنظمة، والسقوط الذريع للعالم العربى والإسلامى، وحالة الهوان وذل السكوت وصمت العار، وحالة العجز عند العرب والمسلمين فى السياسة للمنطقة العربية الإسلامية،

والتى تظهر فى كلمات الهزيمة والضعف، مثل الشجب، الاستنكار، السلام اختيار استراتيجى، فى الوقت الذى تُهدم فيه الدول وتنهب الثروات، ونُتَّهم فيه بالإرهاب، وتوجه إلينا الخدعة بعد الخدعة والكذبة بعد الكذبة؛ إذ ليس هنالك أبشع من أن يكذب أكبر رئيس دولة فى العالم بعد أن شتتَ وهدمَ وقتل فى العراق بدعوى وجود أسلحة نووية، وبعد الحرب قال: لم نجد أسلحة.

لقد أيقن الشباب أن هؤلاء يتلاعبون ويستهزئون بنا ويسخرون منا؛ فكفر الشباب بكل كلمات المهادنة والاستسلام والاستنكار والشجب، وتطلع الشباب إلى موقف فيه عزة .. فيه الأنا العربية والإسلامية فالتقمه الماكرون، وإنَّ مكرهم لتزول منه الجبال، فسلحوه وأعطوه المعلومات ليصبح أخطر وسيلة لإدانة الإسلام .. إنها فتنة تدع الحليم حيران!!

وما لم تتحول السياسة المعاصرة فى العالم من الكذب والتضليل إلى الصدق والشفافية، ومن الظلم والنهب لتحقيق المصالح الخاصة إلى العدل؛ فالعدل أساس الأمن، إن لم يحدث هذا فالعالم إلى حرب عالمية وإلى خراب ودمار، وسوف يطال الإرهاب الجميع، وسوف ينقلب السحر على الساحر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وموضع الشاهد هنا الاستخدام السياسى للغة فى كل عمليات المكر والخداع وصناعة الزيف والتضليل.

العسكـــر:

- العَسْكر: الجيش، والعسكر والمعَسْكَر: موضع الجيش.
- وسارى عَسْكر: مُقَدَّم العسكر وقائد الجيش، استُعْمِلت فى عهد حكم الترك بمصر. (القلقشندى: صبح الأعشى).
- والأطْلاب: العساكر، استعملت فى العصرين الأيوبى والمملوكى. (ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة).

- والإنكشارية: الجنود الجدد، وهى فِرق عسكرية مثلت عصب الجيش العثمانى خلال القرنين ١٧، ١٨م. (د. عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية).

ومع بدايات العصر المملوكى بدأت كلمة العسكر تكتسب ظلالًا سيئة فى مدلولاتها؛ إذ شَكَّل أمراء المماليك آنذاك طبقة أرستقراطية عسكرية ذات موارد اقتصادية ضخمة على حساب عامة الشعب.

استمر الوضع نفسه تقريبًا خلال العصر العثمانى - خاصة زمن ضعف سلاطين العثمانيين - حيث تمتع أمراء الإنكشارية بمميزات كبيرة، خاصة فى ظل نظام (الالتزام) ذلك النظام الذى كان يتم غالبًا عن طريق المزايدة العلنية، ويعنى التزام أحد كبار القادة الأغنياء بدفع مبالغ مالية مُقَدَّمًا للدولة مقابل تحصيل ضرائب من المواطنين، وغالبًا ما كان الملتزم يبتز المواطنين بأخذ مبالغ نقدية تفوق قيمة الضريبة الأصلية بأضعاف مضاعفة.

وكان الجند الذين يجمعون الضرائب الباهظة والظالمة كثيرًا ما يتعدون اقتصاديًّا واجتماعيًّا على العامة والبسطاء، خصوصًا زمن ضعف السلاطين والأمراء.

فلا يعنى إذن، ارتفاع المستوى الاقتصادى آنذاك بالضرورة، ارتفاع مستوى معيشة العامة والفلاحين؛ لأن جُلّ ثروات البلاد كان موزعًا بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، فالموارد يذهب معظمها لأرباب السيوف (العسكر) الذين زاد جشعهم فخربت معظم القرى وتشرد كثير من فلاحيها.

وبالمقابل فإن تمويل المجهود الحربى وطوارئه فى تلك العصور كثيرًا ما كان يتم جبايته من العامة على شكل ضرائب وإتاوات تقصم ظهورهم، وتُعْجِز كثيرين منهم عن أدائها، فيتعرضون للعقوبات البالغة القاسية.

وفى النهاية فإن السلاطين أنفسهم - خاصة غير ذوى الشوكة منهم - لم يسلموا من تمرد قواد العسكر عليهم

وانقلابهم ضدهم[١٨].

وفى العصر الحاضر خلال ثورة ٢٥ يناير، استدعت الثورة الكلمة بظلالها السيئة لتطلقها على الجيش، لتعبر عن عدم رغبتها فى أن يكون للجيش وجود فى الحكم.

قوة اللغة فى الخطاب السياسى:

- **الإقناع وخطط المستقبل:**

تقوم لغة السياسة على الإقناع من خلال إبراز الحجة بوضوح ودقة، والتدرج فى الحوار تفاديًا للاصطدام مع الآخر، ولذلك يكون التمهيد للحوار السياسى بقراءة جيدة للآخر، وتاريخه السياسى، ونمطه التفكيرى، وربما ظروفه النفسية وواقعه ومشاكله ... إلخ.

- **التبرير وجرائم الماضى:**

إذا كان الإقناع أسلوبًا خاصًّا بخطط المستقبل وطموحاته، فإن لغة التبرير تختص - فى الأعم الأغلب - بما

تم إنجازه من أحداث ومواقف فيها إساءة أو ضرر بالآخر.

وقد لجأت إسرائيل إلى هذه اللغة، حين بررت منعها الإعلام الدولى من دخول مدينة «جنين» الفلسطينية، بحجة الحرص على سلامة الإعلاميين، فى حين تفسره المؤسسات الصحفية على مستوى العالم بأنه اعتداء على حرية الصحافة.

• التهديد وسياسة الإكراه:

لأن السياسة تقوم على المصالح، وترتكز على معيار القوة دون معيار القيم والأخلاق؛ فقد تلجأ لغة السياسة إلى التهديد والتحذير لإرغام الآخر على الانصياع، وعدم التمرد أو الصمود، وذلك حين تلوِّح بأسلحة الدمار والخيار النووى الذى تهدد به إسرائيل بغرض الأمن، والحصار الاقتصادى الذى تفرضه أمريكا على ليبيا والعراق، أو بالتخلى عن الآخر فى مشروع قومى ما، أو بإثارة الفتن فى مجتمعه الداخلى، مثل ما حدث فى جنوب السودان، وإثارة أمريكا للجنوب تحت دعوى حق تقرير المصير، وظلت تشعل نيران الفرقة والفتنة حتى تم انفصال جنوب السودان.

• الإثـــارة:

وذلك بإثارة المشاعر الملتهبة تجاه قضية ما، وتوظيف هـذه القضية فى خدمة طرف معين، مثل إعلان صدام حسين الجهـاد إثارة للمشاعر العربية فى حرب الخليج، وإبراز وجـوه المنفعـة، والبيانات التى كانت تصدر بين الحين والآخر عن أسامة بـن لادن، زاعمة أن تنظـيم القاعـدة يهـدف إلى تحريـر المقدسـات؛ للتلاعـب بمشاعر المسلمين فى كافة أنحاء العالم، وكذلك البيانات التـى كانـت تصدر – مع بداية الثورات فى مصـر وليبيا وسـوريا والـيمن – عـن حجم الفساد والأموال المهربة فى بنوك الغرب لرؤساء هذه الـدول، مما أشعل نار السخط والغضب الشعبى على الأنظمة، وبنى أحلامًـا مالية وردية لا يفصل عن تحققها إلا زوال هذه الأنظمة.

• التلويح بالمنافع والأهداف المرتقبة لدى الآخر كورقة ضغط:

مثل إعلان بوش دعم قيام الدولة الفلسطينية عند بدايـة حربه ضد أفغانستان والمسلمين.

• المداهنة والمهادنة:

تلجأ السياسة إلى المداهنة والمهادنة فى حالة الضعف والعجز عن المواجهة، مثل موقف الدول العربية تجاه أمريكا وإسرائيل، حيث تشيع فى البيانات العربية الكلمات الآتية: استنكار، شجب، خيار السلام، رفض ... إلخ.

• تضليل الآخر:

وذلك بوضع أسماء برَّاقة للأعمال المفزعة، مثل إعلان أمريكا الحرب ضد الإرهاب، للتعبير عن حربها ضد المسلمين من أجل المصالح، وإعلانها عن دول محور الشر: (العراق وإيران وكوريا) وإعلان بوش عن أسلحة الدمار الشامل لدى صدام حسين بالعراق، وكذلك إعلان أمريكا عند دخولها العراق أن الحرب على العراق من أجل حرية العراق وتكوين نظام ديمقراطى لصالح العراقيين، والحق أنه الدمار والخراب.. وهكذا تتوالى الأكاذيب الكارثية، لكنها لغة السياسة المعاصرة!!.

ومن ذلك أيضًا ما يطلق من ألفاظ وتعبيرات على أمـور لتغيير الحكم عليها، والنظر إليها، سلبًا أو إيجابًا، مثل:

- الرشـــوة: هدية وعطية.
- الربـــــا: فوائد استثمارية.
- الكفـــــر: حرية فكرية.
- النفـــــاق: سياسة ودبلوماسية.
- الخلاعة والمجون: فنون شعبية وعروض ترويحية.
- الجهـــــاد: إرهاب وأصولية.
- العفـة والحجاب: تخلف ورجعية.
- التهتك والسفور: حضارة ومدنية.
- الزنـــا: تجارب عاطفية.
- التبرج والتعرى: جمال إنسانى.

• تزييف الحقائق:

تلجأ لغة السياسة إلى تزييف الحقائق، من خلال ادعاءات وافتراءات تُضَخُّ من أبواق الإعلام العالمى. وقد بلغت إسرائيل القمة فى تزييف الحقائق من خلال ادعاءاتها المتكررة بأنها صاحبة الحق فى أرض فلسطين، وأن فلسطين ليست للعرب أصلًا، وأن حائط البراق هو حائط المبكى، وأن الهيكل يقع تحت المسجد الأقصى، وأن اللغة العبرية هى أصل اللغات السامية، وهى أصل العربية، وأن الأهرامات الثلاثة من إنجاز أيديهم، وأنهم هم صناع هذه الحضارة .. وهلم جرا.

• التحريض:

يلجأ الخطاب السياسى إلى لغة التحريض، وهى لغة استفزازية تعتمد على الشائعات والباطل، والمبالغة والتهويل، وإثارة الرموز المهمة، وذلك على نحو ما تصنع إسرائيل فى تحريضها الدائم لأمريكا والمجتمع الدولى ضد المسلمين، من خلال افتراء الاتهامات المثيرة وإلصاقها بنا،

مثل: الإرهاب، التطرف، الفساد، العداء، الكراهية لليهود «معاداة السامية» ... إلخ، ويتم هذا من خلال إعلام ذكى على مستوى العالم.

- **التوظيف السياسى لمصطلح «السامية»:**

يَضخ الإعلام الصهيونى موجات متلاحقة على مستوى العالم وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، حول قضية «معاداة السامية»، وتوجه المنظمات الصهيونية الاتهامات إلى الأفراد (على نحو ما حدث مع الأستاذ إبراهيم نافع رئيس جريدة الأهرام عام ٢٠٠٢م) أو إلى المؤسسات المختلفة (على نحو ما حدث مع مسلسل «فارس بلا جواد» فى التليفزيون المصرى)، أو إلى الدول والشعوب (على نحو اتهامهم المسلمين والعرب بمعاداة السامية).

وما من شك فى أن المنظمات الصهيونية تجيد الاصطياد فى الماء العكر، فقد وجدوا الفرصة مواتية بعد أحداث الحادى

عشر من سبتمبر، للاستفادة بموجة العداء العالمى ضد المسلمين والعرب، لدرجة أنهم يعدون كل نقد للصهيونية أو لليهود وإسرائيل لونًا من معاداة السامية، حتى إن بعض الكُتاب الإسرائيليين (إلياهو سلفستر) كتب ينقد هذه المغالاة ويُحذِّر من أثرها السلبى على اليهود فى العالم، وذلك تحت عنوان: «ليس كل نقد معاداة للسامية»(١٩).

والقصد من هذه الموجة التى تثيرها المنظمات الصهيونية تحت دعوى «معاداة السامية» هو إحداث لون من الإرهاب بتهمة «معاداة السامية»، وبالتالى يتولَّد الحذر لدى الكُتاب والمفكرين والهيئات والدول من تناول الصهيونية بأى نقد أو تجريح حتى ولو كان حقًّا، وتصبح قضايا إسرائيل والصهيونية من قبيل الأمور المحظورة، التى نطلق عليها التعبير الشائع المعروف: [ممنوع الاقتراب].

لقد بدأ عمل المنظمات الصهيونية فى قضية معاداة السامية فى

أوروبا، وحققت نجاحًا كبيرًا فى مواجهة ما تراه معاديًا للسامية، والآن تم تشكيل منظمة باسم: «معهد أبحاث إعلام الشرق الأوسط» Middle East Media Research Institute، ومقرها فى واشنطن ولها فروع فى القدس ولندن وباريس وبرلين، وانضمت لها منظمة أخرى قديمة لها خبرة العمل هى: «عصبة مكافحة التشهير» Anti – Defamation League.

واستجدَّت المنظمة محورًا جديدًا ضمن أنشطتها لمواجهة ما تراه معاديًا للسامية فى الإعلام العربى، وبخاصة فى مصر والسعودية، كما أضافت هذه المنظمات إلى مواجهة ما تراه معاديًا للسامية أمرًا آخر نال اهتمامًا بارزًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وهو تبرير السياسات العدوانية لإسرائيل.

وهكذا اختزلت إسرائيل مصطلح السامية وجعلته مرادفًا لليهودية، مع أن مصطلح السامية يشمل مجموعة من الشعوب ترجع بأصولها إلى سام بن نوح، ومنهم العرب الذين لا تُصَنَّف معاداتهم كمعاداة للسامية!.

- **قوة اللغة والخروج من سجن الاستبداد السياسى:**

فى حالة الاستبداد السياسى وديكتاتورية السلطة، يلجأ الناس فى التعبير اللغوى إلى الرمزية والمجاز للتعبير عن همومهم وآلامهم فى واقعهم المرّ، وذلك حين يعجزون عن التعبير المباشر عن هذه الآلام بسبب الطغيان السياسى، وتأخذ اللغة أنماطًا متباينة للخروج من سجن الاستبداد، ومأزق الطغيان السياسى، ومن أهم هذه الأنماط: النُّكتة، القَصص، فن «الكاريكاتير». وفيما يلى شىء من التوضيح لكل نمط من هذه الأنماط:

(١) النُّكتة:

من وسائل التعبير السياسى غير المباشر: النكتة السياسية، التى قد تبدو فى ظاهرها دعابة لطيفة لا تجلب على قائلها، ولا على سامعيها سخط الحاكم، أو آذان رقبائه وجواسيسه.

وتشيع النكتة السياسية بوجه خاص فى عهود الديكتاتورية؛ ذلك أن الديكتاتور لا يقبل نقدًا، وقد يتعرض

من ينتقده للبطش والتنكيل.

ولما كان الإنسان «حيوانًا سياسيًّا» لا يحيا بغير السياسة، لم يكن له بُدٌّ من التنفيس عما يجيش بصدره من هموم سياسية ومعاناة، عبر أشكال أدبية وفنية تخفى أهدافه السياسية وراء حيل بلاغية أو أسلوبية مختلفة.

والنكتة بأسلوبها الضاحك وسياقاتها الاجتماعية تغرى السامعين بالضحك، وتلفتهم - فى الوقت نفسه - إلى مساوئ الحكم وسلبيات الحكام، بل ربما كان الحكام أنفسهم من المولعين بسماع النكات التى تعرِّض بهم وتذكر مثالبهم وطغيانهم.

ولا تزال النكتة من أقوى الوسائل فى نقد السلطة، خاصة عند المصريين المعروفين بالسخرية والتهكم وروح الدعابة.

(٢) القصص السياسى:

فى فن القَصِّ يتقنَّع الخطاب السياسى وراء أقنعة متعددة، أهمها: الرمز.

والرمز يتخذ صورًا مختلفة، لعل من أقدمها حكايات

الحيوان، ومن أشهر الكتب التى اتخذت من حكايات الحيوانات رموزًا لأفكارها السياسية: «كليلة ودمنة»، وهو كتاب هندى فى أصله، تُرجِمَ إلى الفارسية، فنقله ابن المقفع إلى العربية، وزاد فيه بما يناسب حال واقعه السياسى، وكان إقبال ابن المقفع على ترجمة كتاب «كليلة ودمنة» نوعًا من الحيلة كى يستطيع أن يعبر فيه عن رأيه فى شؤون الدولة، فقد كان يأمل من ورائها رفع الظلم وإشاعة العدل، فخاطب الخليفة على لسان الحيوان والطير، ولفت انتباه الرعية إلى الظلم الواقع فى المجتمع، كما شجعهم على مطالبة السلطان بتحقيق العدالة، ولعل هذا النقد السياسى للخليفة ـ حتى ولو كان متقنِّعًا فى ألسنة الحيوانات والطيور، هو الذى جعل أبا جعفر المنصور يوافق والى البصرة على قتل ابن المقفع للخلاص منه بأسلوب التصفية الجسدية الشائع فى واقع السياسة المعاصرة.

(٣) الكاريكاتير:

كلمة «كاريكاتير» Caricature كلمة فرنسية تعنى: الفن الهزلى، والكاريكاتير شكل من أشكال التعبير السياسى،

يمزج بين الصورة والكلمة فى تجسيد سريع وموجز للقضية التى يتعرَّض لها.

لقد جاء الكاريكاتير استجابة لمقتضيات العصر، وما تمليه من سرعة وصول المعلومة، وضمان الفاعلية والتأثير الفورى فى الجماهير، وذلك فى برقية موجزة تخلص إلى لب القضية السياسية التى تعالجها بأسلوب تهكمى ساخر يهدف إلى إبراز جانب بعينه أو عدة جوانب من موضوعه، لهذا فهو يميل إلى التشويه فى الصورة، بالتركيز ـ عن طريق المبالغة ـ على ملمح ما أو عدة ملامح فيها، كما يميل إلى التعليقات القصيرة اللاذعة.

يرتبط فن الكاريكاتير ـ بطبيعة الحال ـ بالصحافة، وكثيرًا ما يوضع فى ثنايا الموضوعات الصحفية المختلفة تلخيصًا لها وإبرازًا للمحور الأساسى.

والكاريكاتير بما يحمله من روح ساخرة، يتيح للفنان التعبير عن آرائه السياسية، وتناول رموز المجتمع بالنقد، بصورة لا يمكن قبولها إذا جاءت فى لغة مباشرة، كما فى المقال والتحليل السياسى، ونحوه.

ومن أشهر فنانى الكاريكاتير العرب: الفنان الفلسطينى «ناجى العلىّ»، الذى اغتالته عناصر من الموساد الإسرائيلى، لخطورة فنِّه على الكيان الصهيونى، وفضحه لممارساته العدوانية، كما كان (ناجى العلىّ) من المغضوب عليهم لدى حكومات عربية كان يوجه إليها نقده العنيف.

ومن أشهر الشخصيات التى ابتكرها خيال ناجى العلىّ: شخصية تُدْعى (حنظلة)، ويرسمه دائمًا من ظهره، قصيرًا، عاقدًا يديه خلف ظهره، ذاهلًا، كأنما يولى ظهره للعالم ولا ينشغل به، أو هو عاجز عن الفعل، فى استعارة تشكيلية تشير إلى الاستعارة اللغوية فى تعبير: مغلول اليدين.

ومن رسامى الكاريكاتير السياسى: زهدى، وصلاح جاهين، ومصطفى حسين الذى كوَّن مع أحمد رجب ـ على مدى أكثر من عشرين عامًا ـ ثنائيًّا فنيًّا وسياسيًّا، فكان مصطفى حسين يرسم الصورة وأحمد رجب يُعلِّق عليها بألفاظه الساخرة.

ومن أشهر الشخصيات التى أبدعها الثنائى:

شخصية فلاح كفر الهنادوة: وهو نموذج للشخصية

المصرية المقهورة، ويُرْسَم مرتديًا الزى الريفى المصرى المعروف، منحنيًا بجسمه أمام رئيس الوزراء.

وتتميز لغة الكاريكاتير بسمات تُسهم فى إكسابها قوة التأثير، ومن أهم هذه السمات: المبالغة والتضخيم، والمفارقة لإبراز المتناقضات، والإيجاز وتكثيف المعانى، والتضمين والتناص مع الموروث الثقافى واللغوى، وأحيانًا يلجأ إلى المباشرة والوضوح(٢٠).

وهذه كلها سمات تميز لغة الكاريكاتير عن أشكال الخطاب اللغوى، هذا من جانب، ومن جانب آخر تحقق له سرعة وصول الرسالة فى وضوح وقوة بالغة، وفى لطف وعمق.

- **قوة اللغة فى الانتخابات «الانتخابات الأمريكية نموذجًا»:**

(كان الأولى أن أتناول نموذجًا مصريًّا أو عربيًّا، لكن حال بينى وبين ذلك حالة الانقسام اللاهبة الموجودة عندنا مع ما يصاحبها من توتر ومبالغات وعناد).

– حملة الانتخابات الرئاسية الأمريكية واستخدام منهج

الإقناع بالإيحاء والتأثير بالتنويم الضمنى (أنماط لغوية تنويمية إيحائية)! .. هل يمكن أن تكون المهارة اللغوية أداة لكسب أصوات الناخبين؟.

- **وقبل أن نجيب نبين معنى «التنويم الضمنى»:**

التنويم الضمنى هو تطبيق من تطبيقات عِلْم التنويم الإيحائىّ/ المغناطيسىّ. ويُستخدم عالميًّا فى عمليات الإقناع والتأثير من قِبَل الوزراء والرؤساء والقيادات العُليا، ويُستخدم أيضًا فى الإعلانات التليفزيونية وعمليات البيع والشراء؛ فهو مجموعة من التقنيات النفسية العالمية التى يُمْكن استخدامها ببراعة فائقة من أجل الحصول على أفضل النتائج الإقناعية الممكنة من الأشخاص تحت ما يُسمَّى بالتنويم؛ بحيث يكون الشخص فى حالة ذهنية يستطيع من خلالها أن يتقبَّل الاقتراحات والمعلومات ويتأثَّر بها .. إنها مرحلة التواصل مع العقل اللاواعى .. تلك المرحلة التى يكون فيها العقل مُتقبِّلًا للتغيير والتعديل فى سلوكياته وعاداته. ولإنجاح هذه العملية يتم استخدام اللغة والكلمات الإيحائية التى تحتوى

على جُمَل تحوى اقتراحات إيجابية وتحفيزية.

- بداخل كل شخص فينا جزءان: الوعى واللاوعى، وكـل جزء منهما يحمل أسرارًا خاصـة بـه، نعرفهـا لكـى نـتعلم كيف يمكن التعامل مـع أى مـنهما ... والمهمـة الأساسـية من استخدام التنويم الإيحائى هى إلغاء الوعى والوصـول بالأفكار مباشرة إلى اللاوعى، ولذلك تأثير قـوى ومـؤثر على الأشخاص المعنيين بعملية الإقناع والتأثير.
- وسُمِّىَ هذا النوع من التنويم بـ"الضمنى" أو "الخفىّ" لأن الشخص يستطيع ببساطة أن يزرع فكرة مـا داخـل عقل شخص آخـر أو مجموعـة مـن الأشـخاص دونـما أدنى إدراك من قِبلهم لما يحدث لهم[٢١].

- **اللغة وسلوك الناخبين:**

نعلم جميعًا أن اللغة قوة، وتتكشَّـف قوتهـا فى الحمـلات الإعلانية الضـخمة الذكيـة، كـما يتضـح مـدى تأثيرهـا عـلى السلوك الشرائى للمستهلك.

والسؤال الآن: هل يُمْكن أن يـؤثِّر الاسـتخدام الـدلالىّ لأنـماط لغويـة معينـة عـلى سـلوك النـاخبين بحيـث يجعلهـم يميلون إلى اختيار مرشَّح رئاسـىّ دون الآخـر؟ وهـل يمكـن توقُّع المرشَّح الفائز من خلال اللغة التى يستخدمها؟.

إذا نظرنـــا فى البِنْيَـــة اللغويـــة Language Structure للخُطَب التى ألقاها «باراك أوباما» فى حملته الانتخابية سـنجد أنه حاول مُخاطبـة الرغبـة القويـة اللاشـعورية لـدى الشـعب الأمريكـىّ فى التغيـير. ومـن المعـروف عـن «أوبامـا» براعتـه الفائقة فى استخدامه للغة والتى من شأنها إقناع مسـتمعيه مـن الناخبين ببرنامجه الرئاسـى والتـأثير فـيهم، وخلـق نـوع مـن التعاطف من جانبهم، وبالتالى كسب تأييدهم.

يستخدم «أوباما» فى خُطَبه اللغـة المجازيـة metaphors، يروى قصصًا وحكايات، ويعقد أيضًا مقارنـات، وكـل هـذه أدوات إقناعية تصل درجة قوتها إلى حَدِّ التأثير فى الأشخاص لاشعوريًّا (أى أنها تلعب على الجانب اللاشعورىّ .. تخاطـب

الجانب اللاشعوريّ لدى الجماهير .. تتواصـل مـع اللاوعـى بشكل مباشر).

عادة ما نستمع إلى القصـص لمجـرَّد الرغبـة فى التسـلية، ولكن قـد تكـون هـذه القصـص مُبطَّنـة برسـائل، ودروس، ومحاولات للتأثير على آرائنا؛ فأثناء اسـتماعنا للقصـة يتوقـف عقلنا الواعى conscious mind عـن العمـل وتتعطَّـل قدرتـه على القيام بالمهام أو الوظائف التـى يؤديهـا مـن تقيـيم ونقـد، وتنقية للمعلومات التى يستقبلها؛ فقـد تكـون الرسـالة التـى يريد المتحدِّث نقلها للمستمعين من خلال القصـة مرفوضـة، ولكن على الرغم من ذلك يدخلون فى حالة من الانبهـار بهـا؛ فالأمر ببساطة أنهـم يسـتمتعون بالقصـة دون فلـترة محتواهـا أو مضمونها (وكأن هـذه المتعـة التـى يشـعرون بهـا سـلبتهم القدرة على تقييم محتواها)، وهذا يُسهل بدوره عملية اخـتراق العقل اللاواعى؛ حيث يكون فى هذه المرحلة مُتقبِّلًا لمـا يُمْـلَى عليه من اقتراحات وأفكار.

- فى أوائل شهر أبريل عام (٢٠٠٨)، تحدَّث "أوباما" فى مأدبة عشاء للحزب الديمقراطى (الواشنطن بوست، ٦ أبريل ٢٠٠٨) عن تجربته المثيرة فى تعلُّم رياضة صيد الذبابة (وهى أكثر أنواع رياضة صيد السمك صعوبة؛ حيث تتم عملية الاصطياد باستعمال ذبابة بلاستيكية كطُعْم للسمك).

صيد الذبابة؟! إنها رياضة صعبة ولا يستطيع الكثيرون ممارستها، فضلًا عن كونها هواية غير مألوفة لدى الكثيرين، لذا فلابُدَّ أن قصة «أوباما» مع هذه الرياضة قد راقت للكثير من الحاضرين.

تعكس القصص واقعًا يعيشه الناس .. فكلنا يتعلَّم طوال الوقت، وأثناء عملية التعلُّم نواجه تحدِّيات، ونرتكب أخطاء، ولكن لأننا ناضجون ننهض ثانية ونواصل عملية التعلُّم.

ولكن ما علاقة ذلك بقصة «باراك أوباما» عن صيد الذبابة؟ لقد وُجِّهَت إلى «أوباما» عديد من الانتقادات تتركز

حول انعدام خبرته كرئيس، وقِصَر مدة عمله كسياسيّ (فى حقل السياسة) مما لا يؤهِّله لهذا المنصب، فضلًا عمّا يَذْكره خصومه بشأن خبرته المحدودة فى مجال الشؤون الخارجية. أتَرَوْنَ العلاقة؟ فكما تمكن «أوباما» من تعلُّم هذه الرياضة الصعبة، يُمْكِنه كذلك أن يتعلَّم كيف يكون رئيسًا. من الممكن أن يكون مستمعوه قد ربطوا لا شعوريًّا بين قصة تعلُّمه لرياضة صيد الذبابة الصعبة وبين قدرته على اكتساب إمكانات ومهارات وقدرات وكفاءات الرئيس.

إذا قال «أوباما» مثلًا بشكل مباشر: «امنحونى الفرصة فى واشنطن، انتخبونى وسأتعلَّم بسرعة ما يجب تعلُّمه» لتنبَّه العقل الواعى ورفض استقبال هذه الرسالة، وسيكون لسان حال المستمع حينئذ: «هذا مخالف للمألوف، لا يمكن القيام به، لا يمكننى قبوله، إذًا، لا، لن أصوِّت له».

- ومثال آخر للتأثير على الآخرين لاشعوريًّا، ذلك الخطاب القوى الذى ألقاه «أوباما» أمام جمهور

الناخبين بمناسبة فوزه بانتخابات ولاية إيوا فى يناير عام (٢٠٠٨). ومرة أخرى عكست كلمات "أوباما" بكل بساطة تجربة يعيشها أبناء الشعب الأمريكى:

«فى طوابير امتدت حول المدارس والكنائس بأعداد لم تشهدها هذه البلاد من قبل، فى القرى الصغيرة وفى المدن الكبيرة، أتيتم جميعًا ديمقراطيون وجمهوريون ومُستقلون لتنهضوا وتقولوا بأننا أمَّة واحدة».

لقد عبَّرت هذه الكلمات بالفعل عن واقع يحياه الأمريكيون، فلابُدَّ أنهم أثناء الاستماع إلى هذا الخطاب قد أومؤوا برؤوسهم موافقة على ما يقوله «أوباما» الذى بدا وكأنه يقرأ أفكار الجماهير؛ فلقد اصطفوا بالفعل حول المدارس والكنائس بأعدادٍ كبيرة، ولكن هل يعتقد الأمريكيون حقًّا أنهم أمَّة واحدة؟

لا أحد يعلم ذلك، ولكنه أراد من خلال كلماته أن يُذكِّرهم بذلك ويُرسِّخه فى أذهانهم فأضاف قائلًا:

«**نحن شعب واحد، وبالنسبة لنا فقد حان وقت التغيير**».

لقد نجح «أوباما» فى إيصـال رسـالته ببراعـة فائقـة؛ فكما تقبَّل الجمهـور الرسـالة الأولى التـى جـاءت مسـايرة لواقعهم، فقد تقبَّلوا الرسالة الثانية التى تـدعو إلى التغيـير بكل سهولة.

- أمَّا اللغة المجازية التى استخدمها «أوباما» فقـد خلقـت لدى الجمهور حالة ذهنيـة لاشـعورية؛ بحيـث أصـبح العقل اللاواعى أكثر تقبلًا للرسائل الأخرى التـى يـود طرحها.
- كل ما فعله «أوباما» أنه فـتح عقـول النـاخبين وأوجـد لديهم الرغبة فى الاستماع لكل ما يعرضه عليهم، بـل فى تفهُّمه بروح سَمْحَة، ممـا سـهَّل عليـه عمليـة إقنـاعهم برسالته التى تدعو إلى التغيير والأمل.

• باللُّغَة يُعْرَف القادة:

خير مثال على ذلك «مارتن لـوثر كيـنج» وعبارتـه الشـهيرة «لديَّ حُلْم... I have a dream ». فـبغض النظـر عـن الحـدث الهام والقويّ الذى قيلت فيه، لا شك أن اللغة التـى اسـتخدمها «كينج» كشفت عن تمتعه بسمات القادة الحقيقيين، فلم يَقُل مـثلًا إن لديـه «فكـرة جيِّـدة، good idea» أو «فكـرة ليُشـارك بهـا، a thought to share ، ولم يَقُل كذلك إنه يعـرف «السـبيل» إلى تحسين الأوضاع فى الولايات المتحدة. لقـد كـان لـدى «كيـنج» حُلْم كسابقيه من الزعماء الأمريكيين العظام، لقد عكست كلماته المصوغة بعناية فائقة إيمانه الشـديد بمبادئـه، واسـتحق أن يحتـل مكانًا بارزًا فى التاريخ الأمريكى لنجاحه فى تصحيح الكثـير مـن الأوضاع فى الولايات المتحدة.

«ومارتن لوثر كينج» (يناير ١٩٢٩ - أبريل ١٩٦٨) زعيم أمريكـى مـن أصـول إفريقيـة، وهـو قِسـيس وناشـط سياسـىّ إنسانىّ، ومن المطالبين بإنهاء التمييز العنصـرى ضد بنى جلدتـه؛

حيث كان السُّود يعانون أقسى صور الاضطهاد والاحتقار فى المجتمع الأمريكى. فى عام (١٩٦٤) حصل على جائزة نوبل للسلام، وكان أصغر من يحوز عليها، فلقد كان بحق من أهم الشخصيات التى دَعَت إلى الحرية وحقوق الإنسان.

- لقد تَلَقَّى أفارقة أمريكا درسهم من الأحداث العظام؛ فقاموا فى عام (١٩٦٣) بثورة لم يَسْبق لها مثيل فى قوتها، اشترك فيها (٢٥٠) ألف شخص، نحو (٦٠) ألفًا منهم من البيض، مُتَّجِهة صَوْب نُصُب «لينكولن» التذكارى، فكانت أكبر مظاهرة فى تاريخ الحقوق المدنية. وهناك ألقى «كينج» خُطْبَة من أروع خطبه، دقَّت لها القلوب وارتجفت، قال فيها:

«لدىَّ حُلْم بأن يومًا من الأيام أطفالى الأربعة سيعيشون فى شعب لا يكون فيه الحكم على الناس بألوان جلودهم، ولكن بما تنطوى عليه أخلاقهم».

ووَصَفَ «كينج» المتظاهرين كما لو كانوا قد اجتمعوا لاقتضاء دَيْن مُسْتَحق لهم، ولم تَفِ أمريكا بسداده «فبدلًا من أن تفِى بشرفٍ بما تعهَّدت به، أعَطت أمريكا الزنوج شيكًا بدون رصيد، شيكًا أعِيد وقد كِتبَ عليه: إن الرصيد لا يكفى لصرفه».

- يعتبر كثيرون أن رسالة لوثر كينج قد تحقَّقت، وأن التفرقة العنصرية قد انتهت فى اليوم الذى فاز فيه «باراك أوباما» بالانتخابات الرئاسية منذ «٢٠ يناير عام ٢٠٠٩».

- **ومن أشهر كلماته:**

- لا يستطيع أحد ركوب ظهرك إلَّا إذا كنت منحنيًا.
- المصيبة ليست فى ظلم الأشرار، بل فى صمت الأخيار.
- إذا لم يكتشف الإنسان شيئًا يموت من أجله فلا يستحق العيْش.
- الحياة مليئة بالحجارة فلا تتعثَّر بها، بل اجمعها وابنِ بها سُلَّمًا تَصْعَد به نحو النجاح.

- الحب هو الشيء الوحيد القادر على تحويل العدو إلى صديق.
- فى النهاية نحن لا نتذكَّر كلمات أعدائنا بل صمت أصدقائنا.
- حياتنا تُشْرف على النهاية يوم نلوذ بالصمت إزاء الأشياء ذات القيمة.
- الظلم فى أى مكان يُهدِّد العدالة فى كل مكان.
- إنك لست فى حاجة إلى درجة عِلْمِيَّة أو شهادة جامعية لتخدم غيرك، إنك فقط تحتاج إلى قلب ملىء بالرحمة وروح يغمرها الحب.
- قدرتنا العلمية تغلَّبت على قوّتنا الروحية .. لقد استطعنا توجيه الصواريخ ولكن لم نستطع توجيه البشر.

• كلمات أَحْيَت أُمَّة:

«فرانكلين روزفيلت» قائد أمريكى أخرج أُمَّته من براثن الوَهَن والضعف وقادها إلى النصر فى الحرب العالمية الثانية.

كان «روزفيلت» بارعًا فى استخدام اللغة؛ حيث كان يتحدَّث إلى جموع الشعب الأمريكى بشكل مباشر ليُهدِّئ من روعهم (يمحو مخاوفهم)، ويلم شعثهم ويحثهم على مساندته والقيام بعمل مُشترك لمواجهة تحديين خطيرين، ألا وهما: إعادة بناء الاقتصاد الأمريكىّ، والدفاع عن الحرية. لقد طمأن الأمريكيين الذين كانوا بلا عمل وبلا أى مصدَرٍ للرزق بعبارته الشهيرة «ليس لدينا ما نخافه إلا الخوف نفسه»[٢٢].

«We have nothing to fear but fear itself »

لقد كان لكلماته الموحية الباعثة على الأمل أثر كبير فى تشجيع (تقوية) الأمريكيين واستنهاض هممهم وإحياء الأمل فى نفوسهم. ولير دّوا الفضل لقائدهم، انتخب الشعب الأمريكى «روزفيلت» رئيسًا للولايات المتحدة لأربع فترات رئاسية كاملة ولأول مرَّة فى تاريخ الولايات المتحدة.

وهكذا، فللغة سحر وسر جاذبية قادر على التأثير فى الناخبين وإقناعهم، وتغيير توجهاتهم؛ إنها قادرة على الإثارة والإقناع وبث الروح والهمة فى الناس، وصناعة الأمل فى المستقبل.

اللغة والقوة والحرب الإعلامية

(حـــرب الكلمـــات)

«إذا كانت الحرب خدعة فاللغة عين الخدعة»

للإعـلام خطـورة بالغـة فى صـناعة الـوعى والتـأثير عـلى المشاهدين بدرجة تفوق خطورة الأسلحة المـدمرة، فاللغـة عـلى لسان الإعلامى أخطر من السلاح فى يد العسـكرى، فهـى تمثـل العصـا السـحرية للقـوة الإعلاميـة. إنهـا تلعـب بجـدارة دور «الحاوى السياسى» الذى يعلم كيف يتلاعـب بالألفـاظ بهـدف خدمة مصلحة محددة أو تحقيق هدف مقصود، ولهذا الأمر أمثلـة عديدة، فلم يخطئ الإعلام الإسرائيلى أبدًا فى التعبير عن عـدوان الجيش الإسرائيلى على الفلسـطينيين الـذين لا يملكـون القـدرة على الحرب، بل غايـة قـدرتهم المقاومـة، لكـن انظـر إلى صـياغة الإعلام الإسرائيلى للحدث، تقول: «الجيش الإسرائـيلى يطلـق النار ردًّا على اعتداءات الفلسطينيين»، وهكـذا تتحـول الحقيقـة إلى كذبـة، ويتحـول الضـحية إلى إرهـابى، والمحتـل المعتـدى

المستعمر إلى ضحية بريئة مغلوبة على أمرها!!

وفى السياق نفسه نجد تبرير أمريكا لحربها ضد العراق بأنها من أجل حرية العراق والقضاء على ديكتاتورية صدام حسين ونشر الديمقراطية، والحق الواضح هو تدمير العراق والاستيلاء على ثرواته وتقسيم العراق إلى أقسام عرقية ومذهبية وطائفية، ليكون خطوة فى تحقيق مشروع الشرق الأوسط الجديد الذى تكون فيه إسرائيل هى الدولة الكبرى والأقوى والمسيطرة على المنطقة.. وهكذا يمكن عن طريق اللغة تزوير الحقائق وإنجاز التضليل السياسى.

ويمتد بنا التأمل لنصل إلى ما أطلق عليه الغرب «الربيع العربى» وما هو فى واقع الحال إلا الخراب العربى الذى يبدو واضحًا فى سوريا وليبيا واليمن، بحسب ما آلت إليه الأمور بالفعل على أرض الواقع؛ بفعل التدخلات الخارجية ومكر قوى الثورة المضادة داخليًّا ومقاومتها الشرسة العنيدة لأى تغيير.

لغة الحرب ولغة السلم:

للحرب لغة وللسلم لغة، فالعداء المستحكم بين إسرائيل والعرب عَبَّر عنه السادات - رحمه الله - بـ«خصومة»[٢٣] عند زيارته للكنيست فى رحلته إلى إسرائيل من أجل السلام.

والإعلام الإسرائيلى فى أوقات الخطر - مثل فترة ما قبل ٦٧م وبداية حرب ٧٣م - كان يتكلم عن وجود إسرائيل؛ فبعد حرب ٦٧ وهيمنة الجيش الإسرائيلى على بعض المناطق فى الدول العربية، كان الإعلام دائمًا يتكلم عن أمن إسرائيل، ولكن عندما ازدادت إسرائيل قوة، والعرب ضعفًا - فى إطار ما يطلق عليه ثورات الربيع العربى - تكلم الإعلام الإسرائيلى عن مصالح إسرائيل ولم يستعمل تعبير وجود إسرائيل ولا أمن إسرائيل، وإنما تحدث عن الدولة اليهودية وإسرائيل الكبرى ومصالح إسرائيل.

إن الإعلام (واللغة أداته) يهدف فى زمن الحرب إلى تهيئة الرأى العام للعمليات العسكرية، وبث روح القتال والفداء

والتضحية فى نفوس المقاتلين، وزرع الثقة فى قدراتهم أمام العدو، كما يعمل الإعلام أثناء الحرب على تبرير مذابح المدنيين واحتلال أرض الغير، وتشريد أهل الأرض وسلب ممتلكاتهم وخيرات بلادهم.

فألفاظ اللغة المعبِّرة عن حالة الحرب تتسم معانيها بالقوة والعنف، والبطش والقهر والسيطرة، والصمود والتحدى، فى حين أن لغة السلم لغة هادئة تتفادى الاصطدام بالآخر، وتكون حريصة على بقاء العلاقات، بل تعمل على تنميتها؛ لذلك تتغير ملامحها عن لغة الحرب؛ حيث تدور دلالات ألفاظها حول السلام والعدل والمعونات والتنمية والرفاهية... إلخ.

اللغة والحرب النفسية:

الحرب النفسية سلاح فى وقت الحرب يهدف إلى تحطيم الروح المعنوية لجنود العدو، وشلِّ إرادة القتال أو المقاومة، فضلًا عن أنها سلاح دفاعى للمحافظة على الروح المعنوية للجنود والشعب ضد حملات العدو النفسية.

وتلعب اللغة دورًا مؤثرًا فى الحرب النفسية؛ لأن النجاح فى صياغة أساليب التحريض، وصياغة الشائعات، وصناعة الشعارات بأسلوب محكم قائم على أسس علمية - يسهم فى نجاح الحرب النفسية وتحقيق أهدافها.

حقًّا، إن اللغة على لسان الإعلامى لا تقل خطورة عن السلاح فى يد العسكرى؛ ألم يبعث محمد سعيد الصحّاف (وزير الإعلام العراقى الأسبق) الأمل فى ١٠٠ مليون عربى على الأقل، بأن «**الأوغاد**» الأمريكان قد سقطوا فى مستنقع حرب المدن والشوارع، وأن «**العلوج**» الأمريكان جبناء، وأن «**الطراطير**» الأمريكان ينتحرون على أسوار بغداد (المعنوية)؟! فى الحرب الأمريكية ضد العراق سنة (٢٠٠٣م).

لقد أدار الصحّاف معركة إعلامية ناجحة لمعركة عسكرية خاسرة، ولفت الانتباه وأثر على المستوى الإعلامى تأثيرًا واضحًا، حتى إنه استطاع أن يأسر الرئيس الأمريكى «جورج دبليو بوش» للاستماع إلى بياناته ومؤتمراته الصحفية.

وفى أثناء ثورة ٢٥ يناير، ألم تسهم الشائعات فى ازدياد حالة الهياج الثورى والتعجيل بسقوط النظام؟!

- وقناة الجزيرة القطرية كانت الإعلام الذى يصب البنزين فوق الثوار بميدان التحرير/ القاهرة، فاشتعلت الثورة، ولعبت الدور المحورى فى نجاح ثورة ٢٥ يناير.
- وأسهم الإعلام غير الرسمى فى الترويج لشائعات خطيرة، من ذلك: شائعة الأموال المهربة التى بلغت مئات الآلاف من المليارات (وهذا رقم فيه كثير من المبالغة) والتى بعودتها إلى مصر سيكون نصيب كل فرد من المواطنين رقمًا خياليًّا لا يحلم به أبدًا، مما تسبب فى الهياج الثورى طمعًا فى هذا الموعود الذى لوَّحت به الشائعات.

وازداد الشعب سخطًا فوق سخط على النظام، ولم يعد يطيق سماع أى كلمة عن فرص الإصلاح مع البقاء! وهكذا فى ليبيا، وفى اليمن.

الحرب النفسية واستثارة الرموز اللغوية:

معلوم أن الحدث الكلامى لـون مـن الاسـتجابة اللفظيـة لمثير فعلى:

مثير فعلى ⟵ استجابة لفظية

وتتحول الاستجابة اللفظية إلى مثير لفظى يؤثر فى المتلقـى بما يتركه فى نفسه من أثر:

مثير لفظى ⟵ استجابة فعلية

وليس مثل الحـرب وأهوالهـا شـىء فى اسـتثارة الألفـاظ والتعبيرات التى تـترك بـدورها أثـرًا عظـيمًا فى وعـى المتلقـى ومشاعره[٢٤].

والتوفيق فى اختيار المثير اللفظى هو بيت القصـيد فى لغـة الحرب النفسية، فينبغى أن تتوفر فيه سمات لغوية أهمها:

- الوضوح.
- البناء للمعلوم أقوى من البناء للمجهول.

- المصادر أقوى من الأفعال.
- الجمل المثبتة أقوى من المنفية.
- الجمل القصيرة أقوى من الطويلة.

غير أن انتقاء الكلمات التى تصلح للشعارات، ومراعاة السمات اللغوية الواجب توافرها (صوتيًّا - صرفيًّا - نحويًّا) ليس كافيًا - وحده - للنجاح فى الحرب النفسية؛ وذلك لأن نجاح لغة الحرب النفسية يعتمد - أيضًا - على مدى التوفيق فى استثارة الرموز اللغوية القادرة على إثارة الجماهير والقوات نحو الهدف المقصود: مقاومة، صمود، استسلام، انهيار... إلخ.[٢٥]

اللغة والحرب الإلكترونية والفاعلون الجدد:

لا تقل حرب المعلومات أهمية عن الحروب العسكرية، بل يسجل الواقع أنها أشد خطرًا منها.

لقد شكل الفضاء الإلكترونى مساحة جديدة للصراع أكثر إثارة وأقوى ذكاءً وأشد فتكًا من الحروب العسكرية؛ إنها تستبيح كل شىء، وأصبح الأقوى إلكترونيًّا هو الذى

يسيطر على الفضاء الإلكترونى، إنه أحد الفاعلين الجدد فى ساحة الصراع.

ومن هنا ظهرت جماعات الإرهاب الإلكترونى والقرصنة الإلكترونية لصناعة الفوضى الخلاقة (الهدامة) فى المجتمع العربى، وصارت أقوى من جيوش بعض الدول، واستطاعت أن تسقط عروش أنظمة كانت تظن أنها تسيطر على الدولة بيد من حديد على نحو ما حدث فى تونس ومصر وليبيا واليمن.

- وهكذا يمكن - عن طريق اللغة - تشكيل الأزمة والحدث من خلال انتقاء الكلمات والتعبيرات التى تحظى برصيد وافر ومؤثر فى عقول الجنود والجماهير.

واستثارة الرموز اللغوية قد تؤثر سلبًا أو إيجابًا: سلبًا بإثارة الذعر والخوف والقلق والاضطراب مما يدفع إلى الاستسلام والانهيار، أو إيجابًا بزرع الثقة، ودعم الروح المعنوية، والحث على التضحية والصمود والفداء.

وإذا كانت «الحرب خدعة» فاللغة عين الخدعة.

ثورة «٢٥ يناير» نموذجًا .. ذل السكوت ليس ذهبًا:

- **الثورة تكسر حاجز الصمت والخوف:**

خوف السنين، وطغيان الفساد، وجبروت الظلم ألجم الأفواه، وتحيَّر أهل العقول فى البحث عن أمل، وكان العجز يبدو فى نهاية كل محاولة، حتى جاء ٢٥ يناير، فانهار جدار الصمت وكُسِرَ حاجز الخوف، وأعلن الشعب - كل الشعب - أن لا سكوت بعد اليوم.. الكل أصبح يجرؤ على الكلام.. لقد انفجرت الثورة ولم يعد بإمكان أحد الوقوف فى طريقها، لقد صارت الثورة قدرًا محتومًا لا مفر منه ولا ملاذ.

وكما كانت ثورة الشباب مبدعة فى فكرها السياسى والتنظيمى، فقد كانت مبدعة لحراك لغوى غير مسبوق.. لقد واكب الثورة وعىٌ لغوى عبر عن كل مرحلة من مراحلها، ورسم صورة صادقة لهذه الثورة منذ البواكير الأولى للثورة الوليدة يوم الثلاثاء ٢٥ يناير، إلى أن أسقطت الثورة النظام وأعلنت أن الشعب قد انتصر.

- **المنحنى اللغوى للثورة:**

كان واضحًا منذ اللحظة الأولى أن للثورة أفقًا لغويًّا، تمثل فى الصياغة اللغوية الذكية لشعارات هـذه الثـورة التـى تعـبر بدقة ووضوح عن أهدافها ومطالبها وروحها الجديدة، فكـان شعار اليوم الأول: عيش ـ حرية ـ عدالة اجتماعية، ثم شـعار: سلمية ـ مصرية ـ مدنية، الذى يجسد هُويَّة الثورة.

وتصاعد المنحنى اللغـوى مـع تصـاعد الأحـداث، فكـان شعار: الشعب يريد إسقاط النظام.

هـذه الشـعارات الجماعيـة التـى صـيغت بدقـة ووضـوح ومصداقية واكبها شعارات فردية؛ كالتى كتبت على اللافتـات، مثل: ولادة متعسرة لمولود اسمه الحرية.

ثـم تصـاعدت الأحـداث فتصـاعدت الشـعارات فتنـادوا: ارحلْ ـ ارحلْ ـ ارحلْ/ الشعب يريد إسقاط الرئيس، وغير ذلـك من التعبيرات التى واكبت الثورة وعبرت عن كل مراحلها.

- وواكبت اللغة الاحتشاد الجُمَعِيَّ، فجاءت تسميات الثوار لمظاهرات الجمعة معبرة عـن الهـدف بوضـوح: فحملـت

الجمعة الأولى اسم: «جمعة الغضب» تعبيرًا عن الغضب الذى تفجر فى قلوب الجماهير بسبب سقوط شهداء، ثم المظاهرة المليونية الأولى يوم الثلاثاء الثانى من بداية الثورة، وجاءت موقعة الجمل فى اليوم التالى، وتصاعدت الأحداث فكانت «جمعة الرحيل»، تعبيرًا عن عزم الثورة على إسقاط النظام، ثم «جمعة التحدى» تجسيدًا للإصرار على رحيل رأس النظام، ثم جاء تعبير: «جمعة النصر» تبشيرًا بانتصار الثورة، ثم «جمعة الخلاص» تعبيرًا عن الرغبة الملحة فى التخلص من ذيول النظام.

- وكما شاركت الكلمات والشعارات فى الثورة، فقد كان للشعر حضور قوى مبكر فى أرض الميدان، يناصر الثوار ويشد على أيديهم، محتفيًا بهذا الفجر الجديد والحلم الوليد، وهذه الصفحة البيضاء التى يرسمها الثوار للوطن العزيز مصر، وكأنهم يمسحون عار السنين من ظلم وفساد وتراجع حضارى وعلمى، فكان للشعر حضور قوى فى ميدان الثورة، فقد استدعى الثوار التراث

الشعرى الثورى، وردَّدَت حناجرهم أبيات أمير الشعراء أحمد شوقى:

زمـان الفـرد يـا فرعـون ولى ودالــت دولــة المتجبرينــا

وأصبحت الرعاة بكـل أرض عـلى حكـم الرعيـة نازلينـا

كما ردَّدت الجماهيرُ أبيات شاعر تونس الكبير أبى القاسـم الشابى:

إذا الشـعب يومًـا أراد الحيـاة فلابـد أن يسـتجيب القـدر

ولابــد لليــل أن يــنجلى ولابــد للقيــد أن ينكــسر

وكما استدعت الثورة التراث الشعرى، فقد أبدعت شـعرها الخاص، ومن المواليد الشعرية للثورة قصيدة الشاعر الثائر المبـدع فاروق جويدة التى بعنوان: «الأرض عادت لنا»، وهـى قصـيدة وجهها الشاعر إلى (فرعون) الغارق فى نشوة السلطة، بينما شـعبه غارق فى الذل والظلم والقهر والحرمان:

يــــا ســــيدى الفرعــــون..

شـــعبك ضـــائع فى الليـــل
يخشـــــــى أن ينـــــــام
فى الجـــوع لا أحـــد ينـــام
فى الخـــوف لا أحـــد ينـــام
فى الحـــزن لا أحـــد ينـــام
مـن لم يمـت فى السـجن قهـرًا
مات فى صخـــب الزحـــام!

وعلى النقيض من هذه الصورة البائسة لجموع الشعب المقهور، رسم الشاعر صورة للفرعون المزهوِّ بقوَّته ومجده المزعوم:

وتسير كالطاووس.. والسفهاء حولك
يلعقون حذاءك المعجون
من نبض الجماجم والعظام
مولاى
ما زال يرتع فى بلاطك كل يوم

ألف دجال مغامر

وأمام عينك يُذبح الشعب الحزين
وأنت تسكرك المباخر!

- وكان شعر العامية شريكًا فى الثورة، فجاءت قصيدة «الميدان» التى وجهها الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودى - رحمه الله - تحية إجلالٍ للثوار الشباب الذين نهضوا لإسقاط «دولة العواجيز»، يقول الشاعر:

أيادى مصرية سمرا ليها فى التمييز

ممدودة وسط الزئير بتكسر البراويز

سطوع لصوت الجموع: شوف مصر تحت الشمس

آن الأوان ترحلى يا دولة العواجيز!

ثم يسرد الشاعر ميراث القهر والطغيان والمرارة التى تجرعها هذا الشعب، إلى أن جاءت ثورة ٢٥ يناير فأعادت إلى الشعب معانى العزة والكرامة، واستيقظ (الغلابة):

الثورة غيض الأمل وغنوة الثوار

الليل إذا خانه لونه يتقلب لنهار

ضج الضجيج بالندا: اصحى يا فجر الناس

فينك يا صوت الغلابة وضحكة الأنفار؟!

- وفى أرض الميدانِ أبدَع شبابُ الثورةِ قصائدهم وأغانيهم:

كلنا إيد واحدة

طلبنا حاجة واحدة

ارْحَلْ .. ارْحَلْ.. ارْحَلْ!

يا شهيد نام واتهنى

ارْحَلْ .. ارْحَلْ!

إحنا فى نار وانت فى جنة

ارْحَلْ .. ارْحَلْ!

ارْحَلْ .. يعنى إمشى!

- وأُنْشِدت فى الميدانِ أغنية: «صرخة غضب».

اصرخ يـا صـوت الغضـب وامـلا السـما باللهـب
واتحـدى زيـف الكتـب ذل السـكوت مـش دهـب
صرخـة غضـب ترتعـد منهـا الإيـدين السـود
فجـر الحيـاة يتولـد مـن صرخـة المولـود

- وفى قلب هذه الأحداث الملتهبة التى سقط فيها قتلى وجَرْحَى لم تفارق الروح المصرية الساخرة الثوارَ، فكانت النكات التى تحمل بعدًا سياسيًّا عميقًا، تعبيرًا أمينًا عن الأحداث، وكانت مواكبة لروح الشباب المسلَّحِ بالعلم والتقنية العلمية.

- ومن ذلك هذه الجملة السَّاخرة: عذرًا، نفد رئيسكم!

- وحينما قيل للرئيس الأسبق: الشعب ينتظر منك خطاب الوداع، أجاب: ليه؟ هو الشعب رايح فين؟!

- وتحكى اللغة حال الزعماء بأسلوب ساخر، فيرسم الشباب هذه الصورة الكاريكاتورية بعنوان: «من دعاء

الزعماء وقت الكرب»:

اللهم إنى أعوذ بك من كرسى يُخْلَع، ومن شعب لا يُقْمَع، ومن صحيفة لا تُمْنَع، ومن مواطن لا يُخْدَع!

اللهم ثبتنى على الكرسى تثبيتًا، وشتت المعارضة تشتيتًا، ولا تُبْقِ منهم شيطانًا ولا عفريتًا.. آمين، آمين، آمين!

- **لغة أبواق النظام:**

فى الحقيقة نحن بإزاء لغتين مختلفتين: فعلى قدر ما كانت لغة الثوار فى أرض الميدان لغة ثائرة صادقة محددة لمطالبها، تعبر عن قيم إنسانية وحضارية، فقد سقطت لغة أبواق النظام فى الإعلام الرسمى؛ وذلك للقراءة الخاطئة للمشهد فى أرض الميدان، والتعبير المضلل عن هذا المشهد الثورى، وغياب الصورة الحقيقية بعرض صور مزيفة.

وإذا أردنا أن نرسم المنحنى اللغوى لأبواق النظام سنجد

أنها لغة عقيمة مصابة بالشيخوخة كالنظام الذى تعبر عنه، فوصفت بواكير الثورة، بأنها «مؤامرة»، «قلة مندسة مأجورة»، «تنفذ أجندة أجنبية»، «أحداث شغب»، تهدف إلى «زعزعة الاستقرار»، ووصفت هذه المظاهرات فى البداية بأنها «تجمهر»، ثم «اعتصام»، ثم «مظاهرات» ثم «حركة»، ولم تجرؤ أبواق النظام أن تطلق اسم الثورة حتى آخر لحظة، بعد سقوط النظام.

ثم أصاب العجز لغة النظام، وسكت الكلام وتحركت الجِمال، فكانت «موقعة الجمل»، هذه التسمية الساخرة التى أطلقها شباب الثورة على بلطجية النظام، ساخرين من هذا التقابل الحاد بين لغة شابة تمثل روحًا جديدة انبعثت على مواقع (Facebook & Twitter)، وبين لغة عقيمة تنتمى إلى عصر البداوة وحضارة الجمل، فكان تعبير: «موقعة الجمل» سخرية مريرة من عقم النظام وشيخوخته وتخلفه.

- **لغة النصر:**

انتصر الشعب وتخلى الرئيس عن السلطة، وسارع الناس يدخلون فى الثورة أفواجًا، وتلوَّنت أبواق النظام بسرعة تفوق سرعة الحرباء، وأصبحت تعرض نفسها بوصفها أبواقًا للثورة، وحاولت أبواق النظام الساقط - بكل سبيل- البحث عن نسب يربطها بالثورة، وتوالت عبارات الاعتذار ولغة التبرير، لكن هيهات.. لقد سقط النظام وسقطت معه أبواقه.

ثم برزت لغة أصحاب المصالح وأهل المكر والحيلة الذين يريدون إجهاض الثورة، وشياطين رموز الفساد تمدهم فى الطغيان والحيل والمكر مدًّا، وجاءت اللغة معبرة عن هذه الأحداث المتسارعة المتلاطمة: «الالتفاف على الثورة»، «القفز على الثورة»، «ركوب الموجة»، «اختطاف الثورة»، «سرقة الحلم»، إلى آخر تلك التعبيرات التى جسَّدتْ مخاوف الثوار من القوى المضادة التى بدأت تحاول الالتفاف على ثورتهم وإجهاضها.

- **تعبيرات أشاعتها الثورة:**

وهذه أهم التعبيرات التى حفلت بها لغة الثوار:

(فجر جديد، حَدَثٌ تَارِيخِىٌّ، تاريخ فاصل، بُرْكَانُ الغَضَبِ، أَبْوَاقُ النِّظَامِ، ثَوْرَةٌ بَيْضَاءُ، ثورة سلمية، أَجْوَاء ثَوْرِيَّةٌ، الأحزاب الديكور، الدولة العميقة، الفلول، فلول النظام، دَوْلَةُ الرَّجُلِ الواحِدِ، رِيَاحُ التَّغْيِيرِ، زعزعة الأمن، الطرف الثالث، مُظَاهَرَاتٌ اسْتِبَاقِيَّةٌ، اعْتِصَامٌ مَفْتُوحٌ، فتنة عمياء، فَرَاغٌ أَمْنِىٌّ، فَرَاغٌ دُسْتُورِىٌّ، فَرَاغٌ سِياسِىٌّ، انفِلات أَمْنِىّ، فَوْضَى عَارِمة، القفز فوق الأحداث، السُّلْطَةُ الْمُطْلَقَةُ مَفْسَدَةٌ مُطْلَقَةٌ، ملاحقات أمنية، لغة جديدة، التف حول...، تهدئة الأوضاع، تبريد الثورة، هَدِيرُ الثَّوْرَةِ، الشَّرارة الأُولَى، الشَّرْعِيَّةُ الدولية، السماوات المفتوحة، رُوحٌ وَاحِدَةٌ، المَدُّ الثَّوْرِىُّ، الرَّبِيعُ العَرَبِىُّ، غَلَيَانٌ، شُحْنَة غَضَبٍ، مُشارَكَةٌ لَا مُغالَبَةٌ، طَبْخَةٌ سِيَاسِيَّةٌ، نُقْطَةُ الغَلَيَانِ، نُقْطَةُ اللَّاعَوْدَةِ،

بِأَعْلَى صَوْتِهِ، حَالَةُ اسْتِنْفَارٍ، حَالَةٌ حَرِجَةٌ، ، غِطَاءٌ سِيَاسِيٌّ، كَرٌّ وَفَرٌّ، كَسَرَ حَاجِزَ الخوف، قَمْعُ الْمُظَاهَرَاتِ، اختراق جدار الصمت، هُدُوءٌ حَذِرٌ، نُقْطَةُ الصِّفْرِ، خُطْوَةٌ لِلْأَمَامِ، خُطْوَةٌ لِلْخَلْفِ، سَحْبُ الثِّقَةِ، تَصْدِيرُ الأَزْمَةِ، أيدى مرتعشة، التخوين، قلة مندسة، الشَّعْبُ يُرِيدُ، الْمُتَحَوِّلُونَ، تَفْرِيغُ الْمُؤَسَّسَاتِ).

- **التنبؤ اللغوى لنجاح الثورة:**

المتأمل للمنحنى اللغوى للثورة من خلال الشعارات والتعبيرات التى عبَّرت عن الثورة ومطالبها ـ يرى تصاعد هذا المنحنى مع تصاعد الأحداث، ويرى كذلك ما تتسم به هذه الشعارات والتعبيرات من دقة ووضوح وتحديد، مما يعبِّر عن الثقة فى قائلها، كما يعبِّر أيضًا عن الروح والهمة التى تتمتع بها هذه الشعارات والتعبيرات، مما جعل الأعم الأغلب من المحللين اللغويين يرقى بالتوقع إلى درجة اليقين

بأن النصر للثورة قادم لا محالة.

هذا فى مقابل الانحدار المتسارع للغة النظام وما يتسم به من بطء ولجوء إلى التعميم اللغوى، وهذا موقف الهاربين من تحمل المسؤولية، واللجوء أيضًا إلى لغة التبرير، كقول الرئيس الأسبق: «كل نظام له أخطاء» وهذا يعنى أنه فى موقف الدفاع، أيضًا الاعتراف الذى ساد لغة النظام من خلال عباراته على لسان الرئيس الأسبق«الشباب الشرفاء» و«المطالب المشروعة».

كل هذا جعل التنبؤ يرقى إلى درجة اليقين بأن النصر قادم، وبأن الثورة تفرض نفسها، وأن النظام يتهاوى سريعًا فى لغته كما تهاوى فى سلوكه وفعله.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن الحراك اللغوى الذى أنتجته الثورة يستحق أن يتوفر له الباحثون بالتحليل والقراءة العميقة التى تكشف لنا كثيرًا من الحقائق.

اللغة والقوة الناعمة (الدراما)

«الدراما فن حى وتشكيل جمالى يقوم على نص مبدع»

- **الأدب القصصى تشكيلٌ جماليٌّ باللغة:**

لما كان لكل فنٍّ أداته التى يتوسَّل بها فى تشكيله الجمالى - فالرسم يتوسَّل باللون، والنَّحْت بالمادة، والاستعراض بالحركة - كان من البدهىّ أن يكون الأدب فنًّا يتوسَّل باللغة، ومن هُنا تأتى العلاقة الوطيدة والجدلية بين اللغة والدراما.

إننا حينما ننظر إلى الفن القصصى بوصفه كتابة نجده فنًّا مختلفًا - بحكم أداته اللغوية - عن الفن القصصى المصوَّر سينمائيًّا / تلفزيونيًّا؛ إذ إن اشتراطات كل فنٍّ تختلف عن الآخر؛ من منطلق أن القصّ الكتابى يفتح الباب أمام خيال المؤلف فى تحريك شخصياته وبنائها باللغة - **مفيدًا من سحرها وقوتها الناعمة** - فى حين أن كادر الصورة هو الذى يؤطّر الشخصيات الدرامية. كما أن العمل الإبداعى الكتابى حمال أوجه وذو قابلية أعلى للتأويل.

وثمة مقولة مفادها أن «**الفن أكثر فلسفة من التاريخ**»، وهذه المقولة تشير فى مجملها إلى ما تلعبه عملية الصِّياغة الفنيّة من تحوير للواقع التاريخى، وإعادة إنتاج للواقع الاجتماعى، من منظور جديد، يتقاطع مع الحقائق، ربما، لكنه لا يكون مطالبًا أن يلتزم بتفاصيلها الحرفية على طول الخط، فقط يمنحنا رؤية معدلة؛ بالغة الخصوصية، لامتناهية الثراء، **وهذا يمثل خطورة لغة الدراما وتأثيرها السحرى الذى يفوق كل تصور**، إن فيلم عمر المختار كان له الأثر البالغ الذى لا يقوم مقامه ألف خطيب ولا ألف كتاب، حيث تعانقت فيه اللغة الفنية بقوتها وسحرها مع الأداء التمثيلى، مع التقنيات السمعبصرية. فكان لهذا العمل الفنى الرائع هذا الأثر فى النفوس والأفكار، وفى إحياء تاريخ أُمَّة بصورة تدفع كل شبهة عن الجهاد الإسلامى؛ بل وتسجله فى ديوان العظمة والخلود.

• **السَّرْد ديوان العرب فى «زمن الرواية»:**

إن نظرية الأنواع الأدبية الحديثة لتؤكد حقيقتين؛ مؤداهما أنّ:

* ثمة كمٌّ هائل من التَّداخل بين تقنيات الأنواع الأدبية الرئيسة وبعضها، على نحو أشْبه ما يكون بزحزحة الجدران بين الأنواع الأدبية، وهو ما اصطلح عليه بـ«**تداخل الأنواع الأدبية**»، وهو ما ينْفتح بنا على عوالم رحيبة، ذات صلة وثيقة بتضفير الخطاب الأدبى.

وكان من ثِمار تزاوُج القصّ بالدّراما أن أفاد كلاهما من التقنيات التى يقدّمها له الآخر؛ فمن شأن المزيج الدرامى أن يجسِّد الأبعاد الدِّرامية للقصة والسيناريو، ويتأرجح بمشاعر المشاهد ويستلب كيانه ويدخله فى عوالمه الخاصة، على النحو الذى كان له فعل السحر، **بما للغة الفن من طاقات جبارة وقوة ناعمة وسحر وجاذبية، الأمر الذى دفع بالسَّرْد نحْو مزيد من ممارسة سطوته على المشاهدين واستلابه إياهم**. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن المادة الصوتية أو السَّمْعية

أو البصرية من شأنها أن تكْسر حاجز الأميـة، الـذى سـبق أن حال بين شريحة من القراء وبين ما يشْتهون مـن قـراءة القصـة المكتوبة، حتى إذا ما قُـدِّمت لهـم مـادة أحـداثها مُمَثَّلـة أقبلـوا عليها شغفين؛ فيتضاعف بذلك حَجْـم الشَّـرائح المسـتهلكة للمادة القصصية بعد تلفزتها دراميًّـا. **وهكـذا تتعـاظم فعاليـة اللغة القصصية فى جذب شريحة جماهيرية كبرى**، وهو سـلاح ذو حدين يشى فى الواقع بضرورة أن يأخذ كُتَّابنا فى اعتبـارهم حساسية المشهد الثقافى والفنـى، والطبيعـة النوعيـة لجمهـور قرائهم ومشاهديهم على السواء.

- **قوة اللغة السَّرْدية قوام الدّراما:**

الدِّراما كلمة إغريقية قديمة تعنى «العمل». ولقد عـرَّف «أرسطو» الدراما بأنها «محاكاة لفعـل إنسـان»، ولعـل أقـرب تحديد لمفهوم الدراما فى أفـلام التلفزيـون، هـو أنهـا «التعبـير باللفظ القليل عن المعنى الكثـير»؛ ولـذلك يقولـون: إن كـل صورة تروى قصـة، فـإذا مـا رويـت القصـة بأقـل قـدر مـن

الإمكانيات والوسائل؛ حقّ لنا أن نسمى العمل عملًا فنيًّا دراميًّا متكاملًا. إن الدراما فى عصر الصورة بمثابة مضَخَّة كبرى لإعادة إنتاج الأفكار والآداب والفلسفات الاجتماعية والنقدية والثقافية!

لقد ظهرت الدّراما التلفزيونية باعتبارها نوعًا من الأنواع الفنية التى واكبت ظهور التلفزيون لتحكى رواية أو قصة ما، عبْر تشْخيصها على الشَّاشة؛ فالكتابة التلفزيونية عمل أدبى قبل أى شىء، وشكلها الأمثل هو السيناريو، إن الحوار الدرامى منذ «شكسبير» يحتلّ مكانة مهمَّة فى الأدب والفنون الدرامية، والقصص أو الحكاية هى العمود الفقرى للعمل الدرامى، وهذا يعنى أن للغة دورًا محوريًّا ومؤثرًا فى العمل الدرامى؛ ولا غرو فالنقاد السينمائيون حين يُقيّمون عملًا دراميًّا ما فإن «القصة» أول ما يتناولونه بالنَّقْد والتَّحْليل، ثم يَعْرِضون بعد ذلك لسائر جوانبه الفنية الأخرى.

• الدِّراما.. بين سِحْر اللغة واسْتِلاب الصُّورة:

تتعدَّد طرائق التأثير الدِّرامى - وبالمثل تتنـوَّع وظائفهـا - بتعدُّد القوالب الدِّرامية؛ فمن وظيفة التَّطهير - مـن عـاطفتَى الخوف والشَّفَقة - قديمًا، إلى التسلية والترفيه حـديثًا، عـلى أن الأهداف المعلَنة كثيرًا ما تُخفى فى طيَّاتها دوافع أخـرى خفيَّـة؛ فعادة ما تتشبَّع المادة الفكاهية مثلًا بأبعاد أيديولوجية مُسَيَّسـة أكثر عمقًا، وتمرُّ الفكرة مـع الضّـحكة. فكثـيرًا مـا سـاعدت مسلسلات الترفيه التثقيفى التلفزيونية فى مختلف أنحاء العـالم فى إحداث تغيرات سلوكية؛ ففى مكسـيكو سـيتى مـثلًا، زاد الالتحاق بفصول محو الأمية بواقع تسعة أضعاف بعـد إذاعـة مسلسل ذى صلة بهذه القضية.

أيضًا لدينا وظيفة النقد الاجتماعى، على طريقة «لغة جلـد الذات»، بتقديم رؤيـة نقديـة لكـل مـا يَكْتَنِـف المجتمـع مـن إشْكالات، ومكاشفة أنفسنا بحقيقة ما انْزلق فيه مجتمعنـا مـن أخطاء، ووقـع فى براثنـه مـن مثالـب عـلى المسـتويات كافـة؛

أخلاقيــة واجتماعيــة وثقافيــة. بيْــد أن عــددًا مــن النقــاد الســينمائيين[٢٦] يتشــكَّكون بشــأن آليــات تَلبِيــة الســينما لهــذه الوظيفة، ويتســاءلون: إلى أى مــدى يمكننــا تلقّــى مــا تقدّمــه الدّراما والسّينما كما لو كان إغْراءً بالنّماذج السّيئة أكثر من كوْنه تنفيرًا منها؟! لماذا يولع فنانونا بتقديم الشَّرائح المْذولــة طــول الوقت كما لو كانوا يعيشون فى مجتمع أحادى النمط؟!

والحق أن خطورة كل هذه التســاؤلات وتلــك التحفُّظــات تتعاظم إذا أخذنا فى اعتبارنا مــا احتلّتــه الــدّراما التلفزيونيــة مــن مكانة متميّزة بــين أكْثــر المــواد جاذبيــة عــلى شاشــات القنــوات التلفزيونية؛ وبالتالى تؤهِّلها هــذه الجاذبيــة لتكــون مــن العنــاصر المؤثّرة بقوَّة فى تشكيل الاتجاهــات الفكريــة والســلوكية لجماهــير المشــاهدين، لا ســيما إذا علمنــا أن الدراســات الميدانيــة التــى تعرَّضت لجمهور الدِّراما تؤكد أن:

هنــاك خمســة عوامــل أو دوافــع أساســية لمشــاهدة الــدراما التلفزيونية؛ وهى دافع التعلم واكتساب المعرفة، ودافــع التعــوُّد، ودافع التّسلية والاستمتاع، والارتياح، ودافع التفاعل.

وتُستَخْدَم العبارات والألفاظ النَّابية بحجة أن العمل بهذا يكتسب صفة الواقعية، وتعتاد آذان المشاهدين الاستماع إلى هذه الألفاظ والعبارات السّاقطة؛ بل يصبح تداولها واستعمالها فى الحياة اليومية - خاصة فى محيط الشباب - استعمالًا مقبولًا ومألوفًا، بل يراه البعض تعبيرًا عن مجاراة «لغة العصر»، ومع انحطاط لغة الخطاب يصبح كل انحطاط فى السلوك أمرًا طبيعيًّا[٢٧].

إن تعلّل صُنَّاع الدّراما بأنهم إنما ينقلون الواقع بكل سوءاته! ليس لهم بعذر؛ فبعد مقارنة سريعة بين أسلوب الحوار فى المسلسلات الأمريكية المهمة، ونظيره فى الأعمال الدرامية العربية، نجد المستوى الفنى لغير قليل من حوارنا الدرامى يُكَرِّس لمزيد من الحشو والثرثرة لصالح تسخين المشهد بالعنف اللفظى والمادى. ورفضنا لهذا لا يعنى التخلِّى عن الشرط الفنى الذى يفترض القيام بجهد إبداعى وذهنى خلال كتابة الحوار الدرامى، وهو أمرٌ ليس بالسَّهْل. وتبقى المهمة الصعبة أننا نحتاج لكاتب مبدع، يتعيَّن عليه أن يُفجِّر اللغة الفنية،

ويستخرج سِحْرها المكنون، ليتسامى بالواقع، لا أن ينحنى له!

وأخيرًا.. فإن الدراما فنٌّ حى، وتشكيل جمالى.. ناعم القوة، سحرىّ الأثر، والمشكلة الجذْرية لدينا مشكلة «نَصّ»، وهو بدوره الذى يبنى عليه بقية المادة الفنية؛ لأن العمل الدرامى فى النهاية عمل جماعى ومزيج فنىٌّ، فالفن الراقى يحتاج إلى لغة راقية ونص مبدع. وهكذا اللغة هى العصا السحرية التى تفتح الأبواب للإبداع فى العمل الفنى.

• سمات لغة الدراما:

بحكم اتّساع قاعدة الجمهور المتعَرِّض لرسائل الدّراما، وتَعَدُّد سماته النوعية والديموجرافية (السن والجنس والمستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى) من جانب، وضرورة أن تُحَقِّقَ تلك الرسائل الإعلامية فاعليتها، وتمارس سِحْرَ قوتها الناعمة على أغلب هذا الجمهور من جانب آخر؛ كان بدهيًّا من كُتَّاب النُّصوص الدِّرامية - بدءًا بالكاتب القصصى وانتهاء بالسيناريست (Scriptwriter) - أن يراعوا

فى لغتهم الدِّرامية - ما وسعهم ذلك - التزامَ جُمْلَةٍ من السّمات الأسلوبية والفنية فى لغتهم الدرامية المصاحبة للصوت والصورة؛ من ذلك أن تكون هذه اللغة:

- لغة الإيجاز وتكثيف المعنى فى ألفاظ قليلة، كما فى عبارة عمر المختار فى فيلمه المشهور: «نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت».
- سهلة الألفاظ، مألوفة الكلمات، فهى لغة السهل الممتنع.
- واضحة المعنى قريبة المأتى، تتجنب الغموض.
- تميل إلى الاقتباس من الأمثال والحكم.
- مُرَاوِحَة بين السَّرد والوَصْف.
- غير وعظية.. تُغَلِّبُ الخبرَ على الإنشاء
- إيحائية.. غير مباشرة؛ ولعل هذا ما يعطيها السحر والجاذبية.
- ذات أبعاد ودلالات رمزية.. تجمع بين العمق والبساطة.

مزدوجة الدلالة؛ تمزج بين الكلمة المسموعة بمداها التعبيرى الواسع واللغة الجسدية بآفاقها الرحبة.

اللغة والقوة والمقدس الدينى

«العربيــة نموذجًـا»

- **أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية:**

نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين، فكان للغة العربية مزية لا تتأتى لغيرها من اللغـات، وكـما أثـر القـرآن الكـريم فى الأمـة العربية، فى أخلاقها وعقيدتها وشتى نواحى حياتها، فقد أثر أيضًـا فى اللغة العربية تأثيرًا بالغًا(٢٨) يمكن إجماله فى المحاور الآتية:

(١) حفظ اللغـة العربيـة حيَّـة عـلى ألسـنة المسـلمين فى بقـاع الأرض كلها:

خلود العربيـة - فى مقابـل انـدثار اللغـات القديمـة كلهـا حقيقة تاريخية؛ فالمتأمِّل فى التاريخ يرى - بوضوح - لغات كثيرة قد اندثرت بموت أهلهـا، أو ضـعفت بضـعفهم؛ فـأين اللغـة الفينيقية - لغة أهل لبنان قديمًا -؟! وأين اللغـة الهيروغليفيـة - لغة أهل مصـر؟! - والآشورية - لغة أهل بابل -؟!... إلخ.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم جعلها محفوظة بحفظه، وباقية ببقائه، وسبحان الله القائل: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩].

وبتأمُّل النظم القرآنى فى هذه الآية الكريمة نرى من وجوه الإعجاز:

- عدول الخطاب القرآنى عن لفظ (القرآن)، واستعمال لفظ (الذِّكْر)، والمراد به هنا: القرآن؛ لإفادة معنى الحضور اللسانى والذهنى، فى تناسب وتناغم مع معنى البقاء المعبَّر عنه بالحفظ.
- استعمال أكثر من أداة من أدوات التوكيد: (إن، نحن، اللام، تقديم الجار والمجرور «له» على المتعلّق «لحافظون»).
- استعمال صيغة اسم الفاعل فى (لحافظون)، بدلالتها على الحاضر والمستقبل.

وكل هذه الأدوات تتآزر معًا لإفادة معنى البقاء والدوام والحضور وقوة التأثير لهذا الكتاب العظيم إبَّان نزوله، وفى المستقبل. والواقع يشهد بهذا؛ فالقرآن الكريم هو النص الوحيد

الذى لم يتغير ولم يتبدَّل منه حرفٌ على تطاول العصور، وعلى امتداد رقعة البلاد الإسلامية فى كافة أرجاء المعمورة.

ومن وسائل حفظ القرآن العظيم: حفظ لغته وبقاؤها حَيَّةً على ألسنة المسلمين عبر خمسة عشر قرنًا من الزمان، من مهد الإسلام فى جزيرة العرب إلى أقصى أطراف الأرض.

كيف استطاعت هذه اللغة العبقرية أن تصمد نحو عشرين قرنًا من الزمان، بينما اندثرت اللغات القديمة جميعًا، بل اندثرت لغات كانت حيةً على الألسنة منذ أقل من أربعة قرون؟

من أمثلة تلك اللغات: اللاتينية التى انقسمت إلى لهجات تحوَّلت فيما بعد إلى لغات مختلفة فى ألفاظها وتراكيبها وبنيتها الكُلِّية. لقد كانت اللاتينية هى لغة الثقافة والعلم حتى وقت قريب، وكانت المؤلفات العلمية الكبرى تُكتب بتلك اللغة إلى عهد نيوتن (عاش فى القرن الثامن عشر)، ومؤلَّفُه الذى قلب موازين علم الفيزياء عنوانه: (Principia Mathmatica) باللاتينية، أى: مبادئ الرياضيات.

ومع ذلك كانت اللاتينية حينئذٍ قد اندثرت تمامًا، وصارت لغة أبراج عاجيَّة، يكتب بها الفلاسفة والعلماء، ولكنها غائبة عن الحياة؛ لأنَّ الألسنة لا تنطق بها.

ومثلها اللغات الدينية التى اندثرت ـ بموتها على الألسنة ـ وانحصر وجودها بين جدران المعابد والأماكن المقدسة، كالسريانية (الآرامية)، والعبرية القديمة، ولغات السيخ والهندوس والشنتو، وغيرها من لغات المعابد التى لا يعرفها سوى أفراد قليلين من كهنة المعابد.

على حين ظلت العربية صامدة متجددةً عبر العصور، واتسع نطاق المتحدثين بها، الذين هم عربٌ باللسان.

وهذا أمرٌ مُشَاهَدٌ محسوس؛ فإنك لتجد الهندى أو الباكستانى أو الإيرانى أو الأمريكى المسلم لا يعرف شيئًا عن قواعد العربية، فإذا ما تلا آيات الذكر الحكيم انطلق لسانُه، وتَخلَّص من عجمته ولُكْنته، وصارت أصواته واضحة كل الوضوح مطبوعة بالطابع العربى الخالص فى صفات

الأصوات ومخارجها.

أفليس هذا وجهًا من وجوه الإعجاز الصوتى للقرآن الكريم؟!

- **الألفاظ القرآنية الخاصة:**

مَن يدقِّق النظر فى العربية المعاصرة يجد الكثير من الألفاظ التى هُجِرت وظلَّ بقاؤها حيةً على الألسنة مقصورًا على الاستخدام الدينى المرتبط بالقرآن.

وفى دراسة - قمت بها - عن الألفاظ الدالة على الكلام والاستخدام الدينى فى العربية المعاصرة، كان من الظواهر اللافتة للانتباه وجود مجموعة من الألفاظ ذات الدلالة الكلامية كادت تغيب عن الاستعمال المعاصر إلا فى المجال الدينى الإسلامى، عند شرح آيات القرآن التى وردت بها هذه الألفاظ، واستعمالُ هذه الألفاظ خارج مجال القرآن نادر ندرةً تصل إلى درجة العدم فى الأعمِّ الأغلب، وضِيقُ مجال

الاستعمال واقتصارُه على المجال الدينى الإسلامى هو الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية فهى ثمرة للملاحظة الأولى، فقد ترتب على الاستعمال اللصيق بالقرآن لهذه الألفاظ استقرار دلالاتها حتى أصبحت تبدو مشابهةً فى استقرار دلالاتها للألفاظ الإسلامية الاصطلاحية: (الصلاة، الزكاة، الحج،.... إلخ).

وفيما يلى أمثلة مختارة من هذه الألفاظ مرتبة ترتيبًا هجائيًّا، مع ذكر معناها الذى استعملت به فى القرآن الكريم[٢٩]:

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١	ث ج ج	ثجاجًا	شديد الانصباب	﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٤].
٢	ث خ ن	أثخنتموهم	المبالغة فى القتل	﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤]
		يثخن		﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فى الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧]
٣	ث ر ب	تثريب	اللوم والتعيير والتوبيخ	﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢]
٤	ج أ ر	تجأرون	رفع الصوت بالدعاء والتضرع	﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]
		يجأرون		﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧]

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
		تجأروا		﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٥]
٥	ج ب ت	الجِبت	كل ما عُبِد من دون الله، واستعمل فى الصنم والكاهن والساحر.	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١]
٦	خ ت ر	خَتَّار	غَدَّار	﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢]
٧	خ ر ص	تخرصون		﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]
		الخراصون		﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ [الذاريات: ١٠]
٨	خ ض د	مخضود	مقطوع شوكه	﴿ فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ [الواقعة:٢٨]

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
٩	خ م ص	مخمصة	مجاعة؛ لأن البطن يضمر من شدة الجوع	﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]
١٠	خ م ط	خمط	كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة بشعة الطعم	﴿فَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ [سبأ:١٦]
١١	خ ن س	الخناس	الشيطان الذى يخنس ويتوارى عند ذكر الله.	﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]
		الْخُنَّس	الكواكب السيارة؛ لأنها تختفى وتغيب	﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]
١٢	دع ع	يَدُعُّ	الدفع بعنف وغلظة	﴿فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢]

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
		يُدَعُّون		﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣]
١٣	ر ف ث	رفث	الفحش فى القول	﴿ الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فى الحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]
١٤	ش ن أ	شنآن	بُغْض	﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢]
١٥	ض ب ح	ضَبْحًا	صوت أنفاس الخيل فى جوفها حين تعدو	﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ [العاديات: ١]
١٦	ض غ ث	ضغثًا	ما جُمع وقُبِض عليه بالكف.	﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: ٤٤]
		أضغاث	أخلاط ملتبسة	﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١٧	غ ط ش	أغطش	أظلم	﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٩]
١٨	هـ ى ت	هَيْتَ لك	هَلُمَّ وأَقْبِلْ	﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: ٢٣]

هذا قليلٌ من كثير مما حفظه القرآن للعربية، وفى هذا أبلغ الدلالة وأقواها على أنّ كلمات القرآن الكريم هى التى كُتِبَ لها الحياة والخلود على مَرِّ الزمن، فى حين أن الثروة اللفظية للعربية التى لم تُستعمَل فى القرآن الكريم قد أُودِعت فى قرافة المعجمات فى الأعمّ الأغلب.

ولا عجب من هذه الملاحظة التى تأكدت من خلال بحث قيِّم لعالمَيْن فَذَّيْن، أحدهما لغوى وهو أستاذنا الدكتور/ عبد الصبور شاهين، والآخر فى علم الإحصاء وهو الدكتور/ على حلمى موسى، تحت عنوان « دراسة إحصائية

لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر[٣٠]، وكان من نتائج هذه الدراسة:

- أن القرآن اصطفى أفضل ١٥٪ من جذور العربية، هى أفضل وأيسر ما فيها، وأن جذور القرآن هى المادة المستعملة فى اللغة العربية من أول الإسلام حتى الآن، وأما الـ ٨٥٪ من لغة الجاهلية فقد أصبحت فى المعاجم لكنها لا تجرى على ألسنة الناس فى حياتهم.
- أن جذور القرآن الكريم هى التى يجرى بها فكر هذه الأمة منذ نطقت بعد رسول الله محمد ﷺ، وبعد نزول القرآن إلى أيامنا هذه، وبحصر مفردات أى جريدة، أو بحث أو مقال، أو أى مادة مكتوبة؛ فإنها لا تخرج عن مادة القرآن إلا بمقدار ٢٪ فقط، وهذا يعنى أن المادة الشائعة المهيمنة فى الكتابات والأحاديث العربية هى مادة القرآن.

وتلتقى هذه الملاحظة مع ملاحظة ابن فارس فى كتابه «الصاحبى» التى تقول: «إن القرآن فرض على الناس بيانًا

خاصًّا، فهم يقولون فى الشىء إذا وصفوه بالطول يقولون: طويل، ولا يقولون: أَشَقُّ ولا أَمَقُّ، وهما لا يردان فى استعمال الناس».

إذًا، فقد هيمن القرآن على هذه اللغة وكان سببًا فى استقرار مادتها؛ لأن مادة القرآن نحفظها جيلًا بعد جيل، ونُردِّدها بطريقة واحدة، وهذا هو السر فى استمرار العربية عبر خمسة عشر قرنًا حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إن شاء الله.

فأى كتاب أو أثر أدبى أو غير ذلك كان له مثل هذا التأثير البالغ والهيمنة الدائمة على فكر أمة نشرت حضارتها فى ربوع الأرض من أدناها إلى أقصاها وعلى لسانها؟!

إن الكتب المقدسة الأخرى ـ على الرغم من أثرها الكبير فى نفوس أتباعها ـ لم يكن لها شىءٌ من هذا التأثير البالغ؛ لأنها تقوقعت فى المعابد، وانحصر استعمالها فى أداء الشعائر الدينية وحسب، أمَّا العربية ـ التى صاغها القرآن صياغة فريدة ـ فقد

تحررتْ وانطلقت بها الألسنة وصار قُصارى جهد الكُتَّاب الذين يكتبون بها أن يتلمَّسوا قبسًا من فصاحة القرآن وبعضًا من بلاغته وحسن تأليفه وتناغُم كلماته وأصواته.

(٢) استقرار اللغة العربية:

على الرغم من أن التطور سُنَّة جارية فى كل اللغات، وأكثر مظاهره يكون فى الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللُّغويَّة (صوتية ـ صرفية ـ نحوية ـ دلالية)، وما تطور منها كان فى إطار المعانى الأصلية وبسببٍ منها.

ويزداد إدراك أهمية الاستقرار اللغوى الذى تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغيُّر السريع الذى يلاحق اللغة الإنجليزية (لغة الحضارة المعاصرة)، فنصوص الإنجليزية القديمة التى مر عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصيَّة على الفهم بالنسبة للإنجليزى المعاصر.

يضاف إلى ذلك ما نشرته مجلة نيوزويك تحت عنوان «تراجع الإنجليزية الفصحى الراقية على مستوى العالم

والإحساس بالخطر من سرعة تغيرها»، ويتساءلون فى فَرْضِيَّة علمية لها ما يبررها: هل نحن (علماء الإنجليزية) أمام لغة جديدة؟

ولعلَّ هذا التغيُّر السريع هو الذى دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمَّة عندهم ــ مثل نصوص شكسبير - بإنجليزية حديثة Modern English يفهمها المعاصرون بدلًا من الإنجليزية القديمة Old English.

فى حين أن العربى المعاصر يقرأ آيات القرآن الكريم فلا يحس معها بغرابة؛ ويكفى النظر إلى هذه الآيات:

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

[العصر ١-٣].

لنتأمَّلْ هذه السلاسة الشائعة فى السورة، وذلك الوضوح الدلالى مع عمق المعانى، وذلك التناسق الصوتى المتمثل فى ختم الآيات بفاصلة الراء المقفلة بالسكون، وتكرار حرف الصاد بما فيه من تفخيم يتناسب وفخامة المقول، ويزيد من

عُلُوٍّ طبقته الصوتية مجاورة الـراء المفخَّمـة.. هـذا بالإضـافة إلى التدرُّج فى طول الجُمَل بحيث توحى بالانتقـال بالخطـاب مـن الشدة والقوَّة والفخامة البالغة فى الآيـة الأولى ﴿ **وَالْعَصْرِ** ﴾ إلى درجة أخف فى الآية الثانيـة، ثـم تُختَمُ السـورة بـأطول آياتهـا، وكأنَّ فى ذلك إشارة إلى اللين والرفـق بـالمؤمنين الـذين عملـوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر... إنك لتشعر مـع هذا الامتداد والهدوء بزمان ممتد طويل يملـؤه المؤمنـون بعمـل الصالحات واستمرار التواصى بالحق والتواصى بالصبر.

إن الجملـة القرآنيـة تتـألف مـن كلـمات وحـروف ذات أصوات يستريح لتآلُفِها السمع والصوت والنطـق، ويتكـون من اجتماعها على الشكل الذى رتبت عليه، نسق جميل ينطوى على إيقاع خفى رائع، ما كان لِيَتِمَّ إلا بالصـورة التـى جـاءت عليها الآيات، وأى وجـه مـن التغيـير أو التبـديل أو الـنقص أو الزيادة يضيع معه هذا الجمال والإبداع القرآنى.

تأمل قوله تعالى: ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْـوَاحٍ**

﴿وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٤]، وتأمل تناسق الكلمات فى كل جملة منها، ثم دقق نظرك وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة، ومع المهموسة والمجهورة وغيرها، ثم أمعن فى تآلف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها، فإنك إذا تأملت فى ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صُبَّتْ من الكلمات والحروف والحركات فى مقدار، وأن ذلك إنما قُدِّر تقديرًا بعلم اللطيف الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة.

ولذلك فإنه على الرغم من مرور أربعة عشر قرنًا، لا يكاد الإنسان يجد صعوبة فى التواصل مع كلمات القرآن، وذلك فى كل المستويات اللُّغوية: (الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية)، وهذه مزية عظيمة؛ أن تكون الأُمَّة موصولةً بتراثها الزاخر تفيد منه وتنتفع به.

وتأمُّلُ مزية استقرار اللغة العربية التى تفردت بها عن

سائر اللغات التى تغيرت وتبدلت تغيُّرًا وَتَبدُّلًا جعل من اللغة الواحدة لغاتٍ كثيرةً متباينة ـ يجعلنا نتساءل: ما السبب وراء هذه المزية؟

هل يمكن إرجاع هذه المزية إلى أن اللغة العربية كانت لغة عالمية فيها كل ما تفتقر إليه الأمم فى كل الأزمنة والأمكنة من ألفاظ ومعانٍ وأخيِلة، بحيث يجد الناس فيها ما يفتقرون إليه؛ لذلك فهم يحرصون عليها؟!

وهذا بعيد؛ فما كانت اللغة العربية ولا غيرها كذلك.

أم أن مزية استقرار اللغة العربية ترجع إلى أهلها ومكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية؟! والواقع يُكَذِّب ذلك؛ فقد كان أهل العربية فى وضع متأخر الشأن بجوار حضارتين عظيمتين هما حضارتا الفرس والروم، وفى حياتنا المعاصرة تتلاحق الهزائم بالعرب سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا.

وهكذا ينتهى بنا التأمل إلى أننا لا نجد سببًا مقنعًا لهذه المزية سوى أنها أثر من آثار القرآن الكريم، ووجه من وجوه إعجازه.

(٣) تهذيب اللغة العربية (تنقية صوتية):

لقد نَحَّى القرآن الكريم عن اللغة التقعر فى الكلام، والألفاظ الحوشية الثقيلة على السمع:

إن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلى يرى كثيرًا من الكلمات الحُوشِيَّة، من ذلك: «جحيش»، و«مستشزرات»، و«جحلنجح»، و«البخصات»، و«المطاط» وغير ذلك كثير.

من ذلك أيضًا ما رواه القالى فى أماليه لأبى محلَّم الشيبانى فى أواخر القرن الثانى من كتاب له إلى بعض الحذَّائين فى نعل.. قال هذا المتقعِّر: « دِنْها، فإذا هَمَّتْ تأتدن، فلا تُخَلِّها تُمَرْخِد، وقَبْلَ أن تَقْفَعِلَّ، فإذا ائْتَدَنَتْ فامْسَحْها بخِرْقَةٍ غير وكيَّة ولا جَشِيَّة، ثم امْعَسْها مَعْسًا رَقيقًا، ثم سنَّ شفْرَتَكَ، وأَمْهِهَا، فإذا رأيت عليها مثل الهَبْوة فسِنَّ رأس الإزميل».. إلخ.

وانظر قول القائل:

فاحذر ولا تَكْتَرْ كَرِيًّا أعْوَجَا

عِلْجًا إذا ساق بنا عَفَنْجَجَا!

وتأمَّلْ تكرار صوت الكاف والعين والجيم على مسافات متقاربة؛ مما يثْقُل على السمع واللسان، حتى يضيق به الناطق ويَمَجّه السامع وتنبو عنه القلوب.

وتكفى نظرة إلى ديوان أى شاعر أو راجز من العصر الجاهلى، لنرى إلى أى مدًى كان أثر القرآن الكريم بالغًا فى تصفية أصوات اللغة وتنقيتها؛ وإليك مثالًا مما أورده صاحب «نظام الغريب فى اللغة» لكلمة معروفة للعرب قاطبة هى "اللبن"، ومن مرادفاتها:

لبن أُمْهُجانٌ، وأُمْهَج بالفتح وأُمْهُوج أيضًا: اللبن الخالص. والماضر: اللبن الحامض ومنه سُمِّيَت المضيرة، ومثله الخاثر. والضَّيَاح: اللبن الممزوج بالماء. والرِّسْل: اللبن الحليب نفسه. والمذيق: اللبن الممزوج بالماء، والصريح الخالص منه. والعُجَالِط والعُجَلِط: الرائب الغليظ. والرُّوبة بغير همز: اللبن الحامض الذى قد رُوِّبَ به الحليب. والعَكِيُّ بتشديد الياء: اللبن الحامض. والهُجْمة والهَجِيمة: اللبن قبل أن يحمض. والحاذر: اللبن

الحامض، فإذا تقطَّعَ وصار اللبن ناحية والماء ناحية فهو مُمْذَقِرٌ، فإن تكبَّدَ بعضه على بعض وحمض فلم يتقطع فهو إذْك. والعُثَلِط والهُدَبِد: ما خَثَر منه وتلبَّد. والصَّقْر: أحمض ما يكون من اللبن، فإذا صُبَّ عليه حليب فهو الرَّائثة والمرِضَّة. والعكيس: اللبن الحليب يُصَبُّ على مَرَق. والنَّخِيسة: لبن الضأن يُصَبُّ على لبن المعز. والصَّحيرة: الحليب المسخن حتى يحترق. والسَّمْهَج والسَّمْلَج: اللبن إذا كان حلوًا دسمًا. والمِلْعاز والمِلْهاز: اللبن يختلط بعضه ببعض عند المخض. والصَّرْب والصَّرَب: أحمض ما يكون من اللبن. والسَجَاج: أرَقُّ ما يكون من اللبن، والمَهْو والمَسْجُور مثله. والنَّسْء: الحليب إذا مزج بالماء، والنَّسِيُّ مثله.

بينما اكتفى القرآن الكريم بكلمة واحدة هى (اللبن)، ولا عجب أن غابت كل تلك الكلمات الحوشية والغريبة عن واقع الاستعمال اللغوى، وبقيت الكلمة القرآنية.

لقد كان القرآن بمثابة غربال لأصوات العربية، ومصفاة لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يثقل على اللسان،

والناظر فى هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة للنقاء الصوتى والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة إعجازية لا نجد لها مثيلًا فى أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة.

- **كذلك نَحَّى القرآن الكريم كثيرًا من الألفاظ التى تعبر عن معانٍ لا يُقِرُّها الإسلام**: من ذلك:

- « المِرْباع »: وهو ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية.
- « النشيطة »: وهى ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود.
- « المَكْس »: وهى دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى أسواق الجاهلية.

وفى هذا سُمُوٌّ لغوى يتوازى مع السُمُوِّ الخُلُقِى الذى أتى به القرآن الكريم.

(٤) توحيد لهجات العربية:

بسبب انعزال القبائل عن بعضها، وضعف وسائل الاتصال بينها، بالإضافة إلى العلل الخِلقية المتصلة بالعملية اللغوية من سوء السمع وسوء الأداء؛ كان للعرب لهجات كثيرة متباينة؛ منها ما كان لأهل الحضر، ومنها ما كان لأهل البدو وما ببيئتهم من خشونة وجفاف، ومن الشواهد المشهورة لتباين اللهجات الأمثلة الآتية:

(أ) اختلاف هيئة النطق للكلمة الواحدة:

وأوضح مثال لذلك هو ظاهرة الإمالة، وأشهر أمثلتها: «الضحى»، «سجى»، «قلى»، «دعا»، بإمالة الفتحة الأخيرة إلى كسرة، والألف التى بعدها إلى ياء فى الأمثلة السابقة. وللإمالة ألوان متنوعة يرجع إليها فى كتب القراءات واللغة.

(ب) اختلاف معانى الكلمات:

روى أن أبا هريرة لما قدم من دَوْس عام خيبر لقى النبى وقد وقعت من يده السكين، فقال: «ناولنى السكين». فالتفت يمنة ويَسْرة ولم يفهم مراده، فكرر له القول وأشار إليها،

فقال: آلمديـةَ تريـد؟ فقـال: «نعـم». قـال: أوَ تُسَـمَّى عنـدكم سكينًا؟! ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ.

فهذا شاهد عـلى تعـدد الـدوالّ والمـدلول واحـد، فجـاء القرآن الكريم يصطفى مـن لغـة العـرب ولهجاتهـا أفضـلها، ليقـدم للعـرب لغـة واحـدة فصـيحة ولهجـة واحـدة عذبـة، ولا يستعصى على أحد فهمها.

(جـ) اختلاف تركيب الكلمات:

تحفل كتب اللغة بشواهد عـلى تعـدد أشـكال الصـياغة التركيبية للكلمات، فقضاعة مثلًا كانت تقلـب اليـاء جـيمًا إذا كانت ياء مشددة أو جاءت بعد العـين، وهـو مـا أطلـق عليـه اللغويون: «عجعجة قضاعة»، ومن ذلك قول شاعرهم:

خالى عويفٌ وأبو عَلِجِّ المطعمان اللحم بالعَشِجِّ

يريد: أبو على، بدلًا من (أبو علج)، وبالعشى بدلًا من (بالعشج).

وهناك أيضًا «الشنشنة» فى لغة اليمن؛ يجعلون الكاف شينًا مطلقًا؛ فبدلًا من أن يقول الرجل: لبَّيك، يقول: لبَّيش، و«العنعنة» فى لغة تميم وقيس؛ يجعلون الهمزة المبدوء بها عينًا يقولون: عِذَنْ أكرمك، بدلًا من: إذن أكرمك، و«الفحفحة» فى لغة هذيل؛ يقولون: علت العياة لكل عىّ، يريدون: حلت الحياة لكل حى، وبلهجتهم قرأ ابن مسعود: «عتى عين» فأرسل إليه سيدنا عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش.

وهناك طمطمانية حمير؛ حيث كانت تنطق «ام» بدلًا من «ال» للتعريف فى صدر الكلمة. ومن ذلك قول رسول الله: «**ليس من امبر امصيام فى امسفر**» والمراد: ليس من البر الصيام فى السفر، وغير ذلك كثير يرجع إليه فى كتب اللهجات.

ولقد أدى اختلاف هذه اللهجات وتباعدها إلى صعوبة الفهم بين القبائل، ويشهد لذلك قول علىٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لرسول الله ﷺ، وقد سمعه يخاطب بنى نهد فيمن وفد عليه من قبائل العرب عام الوفود: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك

تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره، فقال لـه النبـى: « **أدبنـى ربى فأحسن تأديبى** ».

وواضح مـن الحـديث أن النبـى كـان يخاطـب كـل قـوم بلسانهم؛ كيما يفهموا.

(٥) إثراء وتنمية اللغة العربية:

لقد أضاف القـرآن الكـريم نموذجًـا للتعبـير بالعربيـة لم تعرفه العربية من قبل، نموذجًا له الخلود والبقـاء لا تمسـه يـد التغيير والتحريف.

لقد كانت العربية قبل نزول القرآن تُصَنَّف إلى شعر ونثر، فلما نزل القرآن صارت نماذج التعبير اللغوى فى العربية ثلاثة: قرآنًا، وشعرًا، ونثرًا.

ولا ينبغى أن يصنف القرآن تحت عنوان النثر؛ لأن القرآن ليس بنثر، ولا بشعر، إنه كلام رب العالمين.

كما استحدث القرآن الكريم أسماء جديدة، مـن ذلـك مـا يعرف بـ (الألفاظ الإسلامية) التى جاءت تعبيرًا عـن المعـانى

الإيمانية الجديدة، التى لم يكن للعرب معرفة بها؛ من ذلك:

- **الإيمان**: كان بمعنى التصديق مطلقًا، ثم صار له المعنى الشرعى الذى حدده رسول الله ﷺ فى الحديث: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».
- **الكفر**: كان بمعنى الستر مطلقًا، ثم صار له المعنى الشرعى المعروف ومنه تعريف حجة الإسلام الغزالى بأنه: تكذيب الرسول فى شىء مما جاء به.
- **الصلاة**: كانت بمعنى الدعاء مطلقًا، ثم صار لها المعنى الشرعى المعروف، من أفعال محددة وأقوال مخصوصة حددها الشارع.
- **الزكاة**: كانت بمعنى النماء مطلقًا، ثم أصبح لها المعنى الشرعى المعروف، وهو: القدر الواجب إخراجه لمستحقِّيه فى المال الذى بلغ نصابًا معينًا، بشروط مخصوصة.

- **الحج**: كان بمعنى القصد مطلقًا، ثم صار له المعنى الشرعى المعروف، وهو: القصد إلى بيت الله الحرام؛ لأداء أفعال مخصوصة نص عليها القرآن الكريم وبينتها السنة المطهرة، كالإحرام والطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة، ونحو ذلك .
- **المغفرة**: كانت بمعنى: الستر مطلقًا، وأصبحت بمعنى: الصفح والعفو.

كذلك الألفاظ الاصطلاحية التى نشأت فى رحاب العلوم الشرعية المرتبطة بالقرآن الكريم؛ مثل: التوحيد، الفقه، أصول الفقه، التفسير، النحو، الصرف .. إلخ. ويوضح الإمام السيوطى فى « الإتقان » أن هناك أكثر من ستين علمًا من علوم العربية نشأت فى رحاب القرآن الكريم؛ للمحافظة عليه من اللحن من جانب، ومن جانب آخر لمحاولة فهمه والوقوف على أسرار معانيه.

ومن جوانب إثراء العربية :

أ- الرقى بدلالات كثير من الألفاظ؛ مثل:

- **الرسول**: كانت تطلق على شخص يحمل رسالة من إنسان إلى إنسان آخر، ثم ارتقت دلالتها فى الإسلام، وأصبحت تطلق على الإنسان الذى يكلفه الله برسالة إلى البشر، مثل رسل الله: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

- **الكرسى**: ارتقت دلالته فى رحاب القرآن الكريم من خلال دلالته فى الآية الكريمة: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ب- إضافة أغراض جديدة للتعبير

من أهم هذه الأغراض الدعوة إلى المُثُل العليا والأخلاق الحميدة، والقصد فى الغنى والفقر وعدم التهافت فى طلب

الدنيا، والإقبال على الآخرة والرغبة فيها، ونحو ذلك من المعانى الإيمانية.

(٦) سعة انتشار اللغة العربية:

بنزول القرآن ودخول الناس فى دين الله أفواجًا من شتى بقاع الأرض؛ اتجه المسلمون من غير العرب إلى تعلم العربية؛ رغبة فى أداء العبادات والشعائر الدينية بها وقراءة القرآن بالعربية؛ لأن قراءة القرآن الكريم تعبُّد لله تعالى؛ لذا فقد انتشرت اللغة العربية انتشارًا ما كان ليتحقق لها بدون القرآن الكريم.

(٧) القرآن مفجِّر علوم العربية:

من أجل خدمة القرآن الكريم، ومحاولة تيسير فهمه ونطقه على المسلمين الأعاجم، ولصيانته من اللحن والتحريف؛ قامت جهود فريدة لخدمة هذا الكتاب، فنشأت علوم لخدمة القرآن بصورة مباشرة، هى: علوم القرآن، لدراسة كل ما يتصل بالقرآن من مكى ومدنى، وأسباب نزول، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، والقراءات القرآنية .. ونحو ذلك.

يضاف إلى هذا قيام علوم استُخدِمت كأدوات لفهم هذا الكتاب، مثل علوم النحو، والصرف، والبلاغة .. ونحو ذلك.

وكما كان للمفسرين دورٌ بارزٌ فى تفسير آيات القرآن الكريم؛ فقد شارك معهم اللغويون بدور مميز؛ حيث تناولوا لغات القرآن الكريم، من ذلك: «لغات القرآن» للأصمعى (ت ٢١٣هـ)، «لغات القرآن» للفرّاء (ت ٢٠٧هـ)، كما تناولوا غريب القرآن الكريم، من ذلك: «غريب القرآن الكريم» لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

وكان للنحويين أيضًا مشاركة فعالة على نحو ما نجد عند الأخفش والكسائى والفرَّاء فى مؤلفاتهم تحت عنوان: «معانى القرآن».

وهكذا يظهر واضحًا كيف كتب القرآن الكريم شهادة خلود للعربية، فلولا القرآن ما بقيت العربية ولا كانت خالدة صامدة أمام كل محاولات الإقصاء والاغتيال.

ومن هنا يظهر أيضًا أن القرآن الكريم هو محور الارتكاز فى كل محاولات تعزيز الهوية ثقافيًّا ولغويًّا ودينيًّا، وما يعقلها إلا العالمون.

وما يذكر إلا أولو الألباب .. فاعتبروا يا أولى الأبصار.

المراجـــــع

(١) **ابن جنى**: الخصائص: تحقيق محمد على النجار ـ ط٣ ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ١/ ٣٣.

(2) **De Saussure**: Courses in General Linguistics PP. 7 – 150.

(٣) **انظر: روى. إس. هجمان**: اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ترجمة: د. داود حلمى أحمد السيد (مقدمة المترجم)، ص ١٥.

(4) Encyclopedia of Language, P. 284.

(٥) **ابن منظور**: لسان العرب ـ ط٣ ـ بيروت: دار صادر، ١٩٩٤، مادة (ق و ى).

(٦) **مجلة السياسة الدولية**، القوة: كيف يمكن فهم تحولات القوة فى السياسة الدولية، ص ١٦.

(٧) **المرجع السابق**، ص٤.

(٨) **أحمد مطر** : الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر أحمد مطر ـ القاهرة: الحرية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م، ص ٢٣١.

(٩) **كمال بشر**: خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة ـ القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م، ص٧٠.

(١٠) راجع موقع المركز المصرى لتعليم حقوق الإنسان:
http://echre.org/old.ar/difi.html

(١١) المرجع السابق.

(١٢) **محمد محمد داود**: اللغة فى محراب القدس: شريك المقاومة وسجل الحقائق ـ القاهرة: دار الهلال (كتاب الهلال: ٧٢٧)، ٢٠١١م، ص٢١: ٣٦ (صفحات متفرقة)

(١٣) المرجع السابق، ص ٣٦.

(١٤) **محمد محمد داود**: جدلية اللغة والفكر ـ القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٩، ص ٢٦.

(١٥) **محمد محمد داود**: جدلية اللغة والفكر ـ القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٩، راجع الفصول: الثانى، والثالث، والرابع.

- Abley, Mark (2004). Spoken Here: Travels Among Threatened Languages, London: William Heinemann, first edition.
- Boroditsky, L. (2001), Does Language Shape Thought? Mandarin and English Speakers' Conception of Time, Cognitive Psychology.
- Whorf, Benjamin (1956). Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf, Ed. J.B. Carroll, Cambridge: MIT Press.

(١٦) **نعـوم تشومسـكى**: ١١ سـبتمبر ـ ط١ ـ القـاهرة: ميريـت للنشـر والمعلومات، ٢٠٠٢، ص: ٢٦، ٢٧، ٣٦، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩.

(١٧) **المرجع السابق**، ص: ٦٠، ٦١ .

(١٨) راجع بتوسع:

- **المـقـريـزى**: السلوك لمعرفة الدول والملوك.
- **ابن تغرى بردى**: النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة.

- **د. سعيد عاشور**: العصر المماليكى فى مصر والشام.
- **محمـــود شـاكـر**: موسوعة التاريخ الإسلامى.
- **د. عبـد العزيـز الشـناوى**: الدولـة العثمانيـة دولـة إسـلامية مفترى عليها.

(١٩) **راجع المقال بجريدة**: ها آرتس فى ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢ عن مجلة: مختارات إسرائيلية، العدد ٨٩ لسنة ٢٠٠٢، ص٤٠.

راجع بتوسع: مختـارات إسرائيليـة، العـدد ٩٦، ديسـمبر ٢٠٠٢م، التوظيف السياسى لمعاداة السامية، د. عماد جاد، ص٢.

(٢٠) **محمـد محمـد داود**: حـرب الكلـمات فى الغـزو الأمريكـى للعـراق ـ القـاهرة: دار غريـب، ٢٠٠٣م، ص ١٥٩.

(21) http://www.nihadragab.com

(٢٢) المرجع نفسه.

(٢٣) **موسـى صـبرى**: السـادات الحقيقـة والأسـطورة ـ ط٢ـ القـاهرة: المكتـب المصـرى الحـديث، ١٩٨٥م، ص ٣٢١.

(٢٤) **راجع بتفصيل**: جودث جرين: علم اللغة النفسى (تشومسكى وعلم النفس) ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

(٢٥) **داود عبده**: دراسات فى علم اللغة النفسى- ط١ - الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٤م، ص ٦٧.

(٢٦) **لمزيد من التفصيل**؛ يرجى مطالعة: نقد الدراما التلفزيونية، داليا جمال طاهر، ونهى جمال الدين - ط١، ٢٠١٠م.

(٢٧) **بحسب نتائج الاستطلاع الذى أجرته د.«الأميرة سماح فرج عبد الفتاح»** فى دراستها الأكاديمية (بقسم الإذاعة والتلفزيون - كلية الإعلام ـ جامعة القاهرة) التى بعنوان: «صورة الشباب فى الدراما العربية التى يقدمها التلفزيون المصرى».

(٢٨) **راجع بتفصيل** وتوسع محمد محمد داود: العربية وعلم اللغة الحديث ـ القاهرة: مطبعة النمر، ٢٠٠٠م، الفصل الأول.

(٢٩) **محمد محمد داود**: الدلالة والكلام فى إطار المناهج الحديثة ـ القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢م، ص ٥٢٢.

(٣٠) **دراسة إحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الكمبيوتر** (على حلمى موسى)، عبد الصبور شاهين ـ الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٣م.

مـؤلفـات د. محمد داود

- **في مجال الدراسات اللغوية:**

١) القرآن الكريم وتفاعل المعانى (جزءان)، نشر دار غريب.

٢) الدلالة والحركة فى العربية المعاصرة، نشر دار غريب.

٣) الدلالة والكلام فى العربية المعاصرة، نشر دار غريب.

٤) العربية وعلم اللغة الحديث، نشر دار غريب.

٥) الصوائت والمعنى فى العربية، نشر دار غريب.

٦) اللغة والسياسة فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر، نشر دار غريب.

٧) حرب الكلمات فى الغزو الأمريكى للعراق، نشر دار غريب.

٨) دموع الشوباشى بين يدى سيبويه، نشر شركة يمامة للإنتاج الإعلامى.

٩) اللغة وكرة القدم، نشر دار غريب.

١٠) لغويات محدثة، نشر دار غريب.

١١) جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية، نشر دار غريب.

١٢) كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم، نشر دار المنار.

١٣) معجم التعبير الاصطلاحى فى العربية المعاصرة، نشر دار غريب.

١٤) معجم ألفاظ الكلام فى العامية المعاصرة، نشر دار غريب.

١٥) المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين، نشر دار غريب.

١٦) معجم الفروق الدلالية بين كلمات القرآن، نشر دار غريب.

١٧) جدلية اللغة والفكر، نشر دار غريب.

١٨) كلمات القرآن عبر الزمن (لماذا كتب لها الخلود؟)، نشر دار الهلال.

١٩) اللغة فى محراب القدس (شريك المقاومة وسجل الحقائق)، نشر دار الهلال.

٢٠) الإعجـاز البيـانى فى القـرآن الكـريم فى ضـوء علـم اللغـة الحديث، نشر دار الهلال.

٢١) عزيزى الملحد (أسئلة الملحدين أمام العقل والعلـم)، نشـر دار نهضة مصر.

- **فى مجال تحقيق التراث:**

٢٢) كشف المعانى فى متشابه المثاني، لابن جماعة، نشر دار المنار.

٢٣) شرح كافية ابن الحاجب، لابن جماعة، نشر دار المنار.

٢٤) مشتبهات القرآن الكريم، للكسائى، نشر دار المنار.

٢٥) معجم الألفاظ القرآنية، للقليبى، نشر دار الآداب.

٢٦) المختار من مدائح المختار ﷺ للشاعر الشهيد يحيى الصـرصرى، نشر دار المنار.(فاز هذا الكتاب بجائزة مجمع اللغـة العربيـة عـن تحقيق التراث لسنة ٢٠٠٤).

٢٧) تحيـة الـوداع للأديـب كامـل كيلانـى، نشر دار المنار.

- **في مجال الدعوة الإسلامية:**

٢٨) آلام أمة بين القدس وغدر اليهود، نشر دار المنار.

٢٩) مواقف وعبر (٥جـ × ١مجـ)، نشر دار المنار.

٣٠) موعظة البقاع الشريفة بمكة والمدينة، نشر دار المنار.

٣١) القرآن وصحوة العقل، نشر دار المنار.

٣٢) الملاذ الآمن، نشر دار المنار.

- **موسوعات بالاشتراك:**

٣٣) موسوعة بيان الإسلام الرد على الشبهات، نشر دار نهضة مصر.

٣٤) المعجم الموسوعى للتعبير الاصطلاحى فى اللغة العربية، نشر دار نهضة مصر.